TLEMG-225-04/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

سجل تحت رقم: 1799/
بتاريخ: 31 ماي 2008
الرقم:

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
مكتبة الكلية

أسلوب الحوار القرآني
في سورتي البقرة و المائدة
مقاربة في النظم

رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير

من إعداد:
- خالد بلمصابيح

تحت إشراف:
- أ.د. محمد عباس

السنة الجامعية 2003-2004

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

سورة النحل، الآية: 125.

الإهداء

إلى الشموع التي تحترق . . .

لتضيء للاخرين

إلى القلة التي استهوتها المثل . . .

فلم يجرفها التيار .

إلى الذين سبقوا عصرهم . . .

فعاشوا أغرابا .

إلى الأمل الذي لا يفنى . . .

إلى الألم الذي يلهب فيرفع . . .

إلى المثل الأعلى .

شكر و عرفان

إن كان أحدا فعلا يستحق الشكر و التقدير و له يعود الفضل كله في رؤية هذا العمل النور هو أستاذي و مشرفي الدكتور محمد عباس فله منّي أعمق آيات العرفان و من الله له الجزاء الأوفى.

و إن أحدا آخر يجب التنويه بفضله و دعمه المستمر في مرحلة دراساتي العليا هو أخي كريم، له منّي أزكى التحيات و الأمنيات و من الله له الثواب الأسمى...

و إلى كل من ساعدني أقول جزاك الله خيرا.

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم محمد بن عبد الله الذي بعث معلما ومتمما لمكارم الأخلاق، وبعد:

فديننا الحنيف يتطلع إلى أن تكون أمتنا خير أمة أخرجت للناس بعلمها و إيمانها وسلوكها، لها الريادة المطلقة في هذه الخيرية، لذلك خاطبها في أول آية نزلت بإلزامية المعرفة والتعليم، انطلاقا من أنه لا خيرية عن طريق الجهل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.[1]

بل دلها على أن مطلق القراءة لا يكفي لحصول معرفة التنمية في الخيرات علما وسلوكا، إذ لا بد من قراءة هادفة تتطلع إلى الاستيعاب وتوظيف المفاهيم في الارتقاء المنشود بهذه الأمة فقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.[2]

وبذلك يكون سبحانه وتعالى قد دلهم على الطريق الأسلم للتسابق في الخيرات الذي لن يخرج عن طلب العلم من المهد إلى اللحد من جهة، وتوظيف مفاهيمه في الاتجاه الإيجابي من جهة أخرى.

وقد استجابت أمتنا لهذا الأمر السماوي بالامتثال بل تسابقت فيه فصار النص القرآني محورا للدراسات و الأبحاث الهامة قديما وحديثا.

لقد أعاد النص القرآني صوغ العقل والوجدان العربيين، وعلى أساس من أفكار هذا النص قامت حضارة كاملة أثرت تأثيرا عظيما في مجرى التاريخ الإنساني، وامتلك رؤية شديدة الثراء للوجود، وطرح تصورا متميزا لكينونة الإنسان في الزمن.

---

[1] سورة العلق، الآية: 1

[2] سورة التوبة، الآية: 122

وأما الجذور العميقة التي دفعتننا لدراسة الحوار في النص القرآني هو حاجتنا الماسة إلى حوار فكري هادىء وسط هذا الصراع الذي يطحن نفوسنا وكل شيء حولنا، كما يطحننا الضجيج الذي لا يطرح ثمرا يغذي الفكر ويريحه من عناء واقعنا المعاصر. والحوار أسلوب فعال للتخاطب والتعارف على مفاهيم واحدة.

أما الأسلوب الحواري القرآني فكان يهدف وما يزال يهدف إلى صنع جيل خالص القلب والعقل متمسك بالمنهج الإلهي، فهو يخاطب فطرة الإنسان في وجود -الإنسان- والوجود من حوله، من أجل إنقاذه من الركام وتنقيته مما علق بفطرته من شوائب.

من أجل هذا الهدف، اتخذ الحوار القرآني شكل المواجهة الحية مخاطبا الكينونة البشرية وهي ترسف في خضم هذا الواقع.. ذلك من أجل بناء العقيدة كمنهج واقعي يمكن تطبيقه في كل مكان وزمان. لقد سار الحوار القرآني في جميع مراحله على مهل وعمق وتثبيت، ولقد كان هدفه الإنسان الذي يتولى الخلافة عن الله بعبادة الله، فأراد الحوار لهذا- الإنسان -أن يعيش القيم والأخلاق مستخدما العقل للسيطرة على ما يحيط به، والمطلع على الحوار في القرآن الكريم يجده يتم بشفافية وشموخ معا في جو من صدر رحب، وعقل موضوعي صاف يستطيع استيعاب الأفكار المضادة بأناة وصبر.

تمثل هذه الدراسة محاولة للفهم والتحليل والتفسير في آن، وهي محاولة تظل ضرورية وملحة لعدة اعتبارات.

وتطمح محاولتنا هذه إلى مقاربة الحوار القرآني مقاربة جديدة في النظم. لتشخيص هذا الموضوع وتقريب ملامحه خصصنا لهذه الدراسة ثلاثة فصول فضلا عن المقدمة والتمهيد و الخاتمة :

- فصل يتعلق بالحوار ومضمونه اللغوي والاصطلاحي مع آراء بعض العلماء، والحوار في القرآن الكريم والسيرة النبوية، ذكرنا فيه عناصر الحوار و قواعده.

- أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه موضوع الأسلوب، ذكرنا فيه الأسلوب القرآني وما يتعلق به، وفي مبحث آخر كان حديثنا عن الأسلوب الحواري وخصائصه البلاغية.

- و في الفصل الثالث قمنا بالدراسة التطبيقية والتحليلية لنصوص من سورتي البقرة والمائدة، تتضمن مجموعة من الحوارات القرآنية.

وفي هذه المادة انطلاقا من أن "المنهج العلمي في بحث أي مادة يجب أن يكون مشتقا من طبيعة المادة المدروسة". فإننا بالنسبة للتعرف على مادة الفصلين الأول والثاني فإننا سلكنا في تشخيصها المنهج الوصفي، وأما الفصل الثالث التطبيقي فإن المنهج الذي نسلكه للوصول إلى الغرض هو المنهج التحليلي، الذي نعتمد فيه التفسير والتحليل انطلاقا من تفاسير القرآن الكريم.

وقد لا يفوتنا أن نذكر ديننا لهؤلاء الذين حظينا بقراءتهم والإفادة من آرائهم وتصوراتهم. فدفعوا خطانا قدما ومن هؤلاء، الشيخ محمد حسين فضل الله و كتابه " الحوار في القرآن "، والدكتور عبد العظيم المطعني وكتابه خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية والأستاذ أحمد سنبل وكتابه الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، وكذلك كتب التفاسير وعلى رأسها التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور و في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب و الكشاف للزّمخشري.

وأهم الصعوبات التي واجهت بحثنا المصادر والمراجع وصعوبة الحصول عليها رغم تنقلنا إلى عدة أماكن لكن دون تحقيق الغرض، و أما العقبة الثانية التي اعترضتنا فهي قلة الدراسات الحديثة لمثل هذه المواضيع، فكانت الكتب القديمة وخاصة كتب التفاسير من أهم المصادر التي استقينا منها المادة العلمية.

نعترف أخيرا أن مكابدة النص القرآني مكابدة تنطوي على لذة غير محدودة، ولعل تأمله مرة بعد مرة، وعد دائم بانفتاح على أفق أوسع، إنه النص الـــذي يهـــب العقـــل حضوره وبصيرته، ويمد جسره العالي من اللغة والحقيقة.

نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

نحمد الله تعالى، ونشكر له فضله ونعمه وتوفيقه إيانا في إعداد هذا البحث، ثـــم نشكر الأستاذ الدكتور محمد عباس الذي فجر بداخلنا -من خلال إشرافه علـــى هـــذا البحث- نبعا صافيا من الأشواق والتأملات. وندين بالفضل لأساتذتنا الأجـــلاء الذيـــن تلقينا على أيديهم علوم اللغة والبلاغة وهم الأستاذ الدكتور محمد مرتـــاض والأســـتاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، والأســـــتاذ الدكتور محمد رضوان النجـــار و الأســـتاذ الدكتور محمد طول، و الأستاذ محمد زمري، و الأستاذ محمد محي الدين متعهم الله كلهم بالصحة والعـــــافية وغيرهم من الأساتذة فإليهم وإلى كل مـــن ألهمونـــا بذكـــاء روحهم، فكرة وتساؤلا أعمق آيات العرفان.

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله تقبلا حسنا، وأن يجعل الجهد المبـــذول فيه خير الذخر للآخرة... إنه هو السميع المجيب.

والله ولي التوفيق

[1] سورة لقمان، الآية 27.

التمهيد

التمهيد

لا يمكن للناظر المنصف إلا أن يقر بأصالة منهج الحوار في تراثنا الإسلامي، ففي القرآن الكريم يحتل الحوار مكانة هامة كما تدل على ذلك البنية الحوارية للنص القرآني، ويشهد بذلك العدد الهائل من الآيات المحتوية على أفعال الحوار الصريحة مثل (قال، قلنا، قالوا، قل، قيل، والتي تربوا على ألف وخمس مئة 1500 آية) ثم هناك دعوات صريحة للجدال الحسن عند وقوع الاختلاف بين المسلمين وبين غيرهم، وآيات عديدة نذكر منها قوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1] وفي هذه الآية الأخيرة إشارة إلى الحذر من التصنيف أو إصدار الأحكام النهائية فالضلال والهداية هما أمران يختص بهما العلم الإلهي بما يعنيه ذلك من السعي إلى الحوار مهما ظهر أن المسافة بعيدة عن الطرفين، وهذا الحرص على الحوار يبدو في نموذج آخر ويتمثل في دعوة الله لنبيه موسى عليه السلام هو و أخيه هارون عليه السلام بالذهاب إلى فرعون يمثل قمة الطغيان الذي بلغ إلى حد ادّعاء الألوهية، ومع أن الله أعلم بحالة فرعون وماله نجد هذا التوجيه لنبيه موسى وأخيه هارون:﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2].

إنّ هذا الأمل في الحصول على التفهم هو الذي يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للحوار.

والقرآن الكريم يسجل نماذج من الحوار دارت في الملأ الأعلى، حوار بين خالق الخلق جميعا وبين الملائكة، كما تسجل لنا ذلك سورة البقرة:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

[1] سورة النحل، الآية: 125.

[2] سورة طه، الآيتين: 43 – 44.

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

ويتجاوز الأمر هذا المستوى من الحوار الإستخباري من جهة الملائكة للخالق سبحانه وتعالى، بل أن القرآن يسجل أنواعا من الحوار تتضمن أعلى أشكال الغطرسة والتكبر على الحق والعناد والجحود كما يتجسد ذلك في الاعتراض الشيطاني على الذات الإلهية: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[4].وفي نفس السياق يسجل القرآن أشكالا من الاعتراض.

وقد ورث المسلمون في عهودهم الحضارية الزاهرة هذا المنهج المنفتح فكانت الساحة الثقافية الإسلامية ساحة مفتوحة على كل التيارات والاتجاهات كما تشهد لذلك الكتب التي أرخت لمقالات الملل والنحل والفرق، وما ذلك إلاّ لعناية المسلمين بضبط هذا الثراء الفكري وتسجيله ونقله إلى أجيال أخرى مع أن الأمة الإسلامية هي أمة الوحدة والتوحيد، وهذا الانفتاح عامل قوة فقد اندثرت في جو المناظرات كل التيارات التي لم تستطع أن تصمد في معركة البقاء للأصلح.

---

[3] سورة البقرة، الآيات: 30 – 32.

[4] سورة الأعراف، الآيات: 12 – 17

ويستدل الدكتور طه عبد الرحمان على أهمية المنهج الحواري الجدلي عند المسلمين بغنى معجم المناظرة في اللغة العربية. إذ نجد في هذه اللغة ثراء اصطلاحيا للإشارة إلى هذا الموضوع فبالإضافة إلى لفظتي المناظرة والمحاورة، نجد المخاطبة و المجادلة والمحاجة والمناقشة والمنازعة والمذاكرة والمباحثة والمجالسة والمفاوضة والمراجعة والمطارحة والمساجلة والمعارضة والمناقضة والمداولة والمداخلة.[5]

القرآن الكريم كتاب حوار :

يقول الشيخ محمد حسين فضل الله: "وكان القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية التي جاءت لتعلّم الإنسان كيف يكون الحوار طريقا للفكر والعقيدة والعمل.

وجاء الإسلام – من خلال القرآن الكريم – ليكون دين الحوار الذي يطلق للفكر أن يفكر في كل شيء ليتحدث عن كل شيء وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل.. ليعلّمهم كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة، والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن..."[6]

---

[5] ينظر: د. سعد الدين العثماني، في فقه الحوار، المغرب– الدار البيضاء، منشورات الفرقان ط2، 1416هـ 1996م، ص21.

[6] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، مقدمة الطبعة الأولى، لبنان – بيروت ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1405 هـ – 1985 م.

الـــفـــصـــل الأول

الـحـــوار ومـقـومـاتـه

1- مفهوم الحـــــوار

2- عناصـــر الحـــوار

3- قواعـــد الحـــــوار

1- مفهوم الحـــــوار:

التعريف اللغوي:

ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي:

قال الله تعالى:﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَـــيْئًا وَفَجَّرْنَـا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْـــكَ مَالًـا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.[7]

وقال الله تعالى:﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِـنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾.[8]

وقال الله تعالى﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَـــا وَتَشْـتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[9]

قال ابن منظور في لسان العرب: كلمته فما رجع إلي حوارا. وحـــوارا ومحـــاورة وحويرا ومحورة، بضم الحاء، بوزن: مشورة، أي :جوابا.

و أحار عليه جوابه: رده وأحرت له جوابا، وما أحار بكلمة، والاسم من المحاورة الحوير، تقول سمعت حويرهما وحوارهما.

والمحاورة : المجاوبة، والتحاور: التجاوب، وتقول: كلمته فما أحار إلي جوابا وما رجـــع إلي حويرا ولا حويرة ولا محاورة ولا حوارا أي مارد جوابا. واستحارة: أي استنطقه.[10]

وفي حديث علي – كرم الله وجهه – يرجع إليكما ابناكما بحور ما بعثتما به، أي: بجواب ذلك، يقال: كلمته فما رد إلي حورا، أي جوابا.

---

[7] سورة الكهف: الآية: 33 – 34

[8] سورة الكهف: الآية: 37.

[9] سورة المجادلة الآية: 01.

[10] ابن المنظور،لسان العرب، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج3 ، ص374-375

و أصل الحوار: الرجوع إلى النقص، ومنه حديث عبادة: يوشك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين قراءة القرآن على لسان محمد، (صلى الله عليه وسلم)، فأعاده وأبدأه لا يحور فيكم إلا كما يحور صاحب الحور الميت، أي: لا يرجع فيكم بخير ولا ينفع بما حفظه من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه.

وفي حديث سطيح، فلم يحر جوابا أي لم يرجع و لم يرد.

وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. وحاوره والمحورة. من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة كالمحورة، وأنشد:

لحاجة ذي بث ومحورة له *** كفى رجعها من قصة المتكلم

وما جاءتني عنه محورة، أي: ما أرجع إلي عنه خبر، وإنه لضعيف الحور، أي: المحاورة، وقوله:

وأصفر مضبوح نظرت حواره *** على النار واستودعه كف مجمد.

ويروى: حويرد. وإنما بحواره وحويره خروج القدح من النار أي نظرت الفلح والفوز. واستحار الدار: استنطقها، من الحوار الذي هو الرجوع.[11]

وخلاصة هذا التعريف:

أن المحاورة هي:المجاوبة. والتحاور هو :التجاوب. والحوار هو : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

ومن المصطلحات القريبة من هذا المعنى: الجدال، والمناظرة، ونحوهما.

فالجدال هو : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ومنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

الجدال لغة:جاء في مختار الصحاح:جادله: خاصمه، ومجادلة، وجدالا، والإسم: الجدل وهو شدة الخصومة.[12]

---

[11] المصدر السابق، مادة حور، ج 3 ص 374-375.

[12] أبوبكر الرازي. مختار الصحاح , ضبط وتخريج د. مصطفى ديب البغا.- ط4. - الجزائر : دار الهدى.

والذي نلحظه من استعمالات القرآن الكريم أن استعماله بمعناه "المذموم"هو الغالب: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.[13]

﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.[14]

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[15]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾.[16]

وقد يرد الجدال بمعناه المحمود:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[17]

فقد وردت هنا بمعنى الحوار الهادئ.

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[18]

"جاءت العبارة التالية للجدال قيدا عليه، لتميزه عن الجدال المذموم من الناحية، ولبيان أنه لا ترذيل فيه، ولا تقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ولا يشعر أن ليس هدفه الغلبة في الجدال، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق".[19]

و يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآية من سورة النحل :"و الجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف و لا ترذيل له و تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي و يشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، و لكن الإقناع و الوصول إلى الحق،

---

[13] سورة غافر الآية 05.

[14] سورة النساء الآية 109.

[15] سورة الحج الآية 68.

[16] سورة الحج الآية 08.

[17] سورة المجادلة الآية 01.

[18] سورة النحل الآية 125.

[19] الشيخ علي محمد الصابوني،صفوة التفاسير، قسنطينة، دار الضياء، ط5، 1411هـ 1990م، ج3، ص: 334.

فالنفس البشرية لها كبرياؤها و عنادها، و هي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتّى لا تشعر بالهزيمة، و سرعان ما تختلط على النفس قيمة الرّأي تنازلا عن هيبتها و احترامها و كيانها، و الجدل بالحسنى هو الّذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة، و يشعر المجادل أنّ ذاته مصونة، و قيمته كريمة، و أنّ الداعي لا يقصد إلاّ كشف الحقيقة في ذاتها، و الاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته و نصرة رأيه و هزيمة الرّأي الآخر و لكي يطامن الداعية من حماسته عن سبيله و الأعلم بالمهتدين، فلا ضرورة للحاجة في الجدل، إنّما هو البيان و الأمر بعد ذلك لله".[20]

وقد قال فيه القرطبي كذلك:"وأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله".[21]

التعريف الاصطلاحي :

إن الحوار يتعلق بعمل مشترك بين اثنين أو أكثر يتجاوبون فيه، إنها عملية تفاعل بين طرفين أو أطراف، أو عملية تواصل مع الآخرين.

فالحوار هو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب، مما يجعل فرص الإقناع والاقتناع واستفادة كل واحد من صاحبه أوسع وأرحب.

والحوار هو الطريق الأمثل للإقناع الذي ينبع من أعماق صاحبه، والاقتناع هو أساس الإيمان الذي لا يمكن أن يفرض، وإنما ينبع من داخل الإنسان.

---

[20] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار العلم للملايين، لبنان، ط4، 1990، ج4، ص 202.

[21] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ـــ بيروت، دار الكتاب العربي، ط 2، 1372 هـ ـــ 1952 م، ج5، ص: 72.

"لهذا يعتمد القرآن الكريم اعتمادا كبيرا على أسلوب الحوار في توظيف المواقف، وجلاء الحقائق وهداية العقل، وتحريك الوجدان، واستحاشة الضمير، وفتح المسالك التي تؤدي إلى حسن التلقي والاستجابة والتدرج بالحجة، احتراما لكرامة الإنسان وإعلاء لشأن عقله الذي ينبغي أن يقتنع على بينة ونور".[22]

ولهذا قال الأستاذ محمد رمضان:"الحوار هو القوة الكبرى في فن العلاقات الإنسانية..." إنه المنهج الوحيد الذي تتحقق به المواجهة المباشرة بين القلوب والعقول.

ولما كانت القلوب والعقول خاضعة للفطر السليمة من ناحية، وللتعاليم المحرفة التي تطرأ عليها من ناحية أخرى، فقد وجب أن تكون الغلبة في النهاية للحوار الذي يستنير بهذه الفطرة السليمة، فلا تعود هناك أية حاجة إلى أساليب التخويف والضغط المادي والإثارة الوقتية التي تحدث آثارا عابرة في النفوس، تذهب بذهاب العصر الذي ظهرت فيه ".[23]

أما أفلاطون فيعتبر الجدل مقصود لذاته وتأتي الرغبة في الوصول إلى حل المشكلات الفلسفية في الدرجة الثانية من الأهمية يقول أفلاطون:"إن المحاورة تحدد موضوعا للدراسة وليس المقصود منها الخروج بنتيجة، بصدد المشكلة المعروضة، بقدر ما تجعلنا نقدر على الجدل في كل الموضوعات فهدف المحاورات إذن، ليس إمدادنا بالمعلومات والمعرف بقدر ما تقدمّه من مساعدة على التدرّب على فن الجدل"[24]

---

[22] الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، وحدة الدراسات والبحوث في أصول الحوار، ط4، 1416هـ 1995 ص13.

[23] المرجع السابق، ص: 14.

[24] الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، أفلاطون ، مصر- القاهرة ، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، (1971).

الحـــوار والجـــدل :

أشرنا فيما سبق بأن الكلمتان قد وردتا في القرآن الكريم في أكثر مـــن موضـــع، ولكن كلمة (الحوار) أقل استعمالا من كلمة (جدل). ولا نجدها ذكرا إلا في آيات ثلاثة، اثنتان منها في سورة الكهف في مقام الحديث عن قصة صاحب الجنتين وهما:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.[25]

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[26] .

أما الآية الثالثة التي وردت فيها كلمة (حوار) فهي في سورة المجادلة في معـــــرض قصة المرأة التي أتت النبي (صلى الله عليه وسلم) شاكية زوجها إلى الله.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[27]

كلمة (الجدل) فقد جاءت الإشارة إليها في سبعة وعشرين موضعـــا، في العديـــد من القضايا.

تعريـــف قدامـــة بن جعفـــر للجـــدل :

يـــقـــول قدامه ابن جعفر:"وأما الجدل والمجادلـــة فهمـــا قـــول يقصـــد بـــه إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين. ويســـتعمل في المذاهـــب والديانـــات. وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات، ويدخل في الشعر وفي النثر، وهـــو ينقسم إلى قسمين: أحدهما محمود والأخر مذموم، فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق

---

[25] سورة الكهف، الآية: 34.

[26] سورة الكهف، الآية: 37.

[27] سورة المجادلة، الآية: 01.

ويستعمل به الصدق. وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة وطلب به الرياء والسمعة".[28]

ويواصل قدامه بن جعفر كلامه عن الجدل والمجادلة وأنواعها بالاستدلال من القرآن الكريم فيورد بعض الآيات فيقول:"وقد جاء في القرآن مدح ما ذكرنا أنّه محمود، وذمّ ما ذكرنا أنّه مذموم، وتواتر فيه قول الحكماء وألفاظ الشعراء، فقال الله عز وجل ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[29] وقال:﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[30] وقال في إبراهيم:﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[31].

وقال:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[32] وبذلك تعبد أنبياءه وصالح عباده، فقال عز وجل:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[33].

ويواصل قدامة بن جعفر حديثة فيذكر المراء ويعده أمرا مذموما فيقول:"وأما ما جاء في التعنت والمراء وطلب السمعة والرياء وقصد الباطل وركوب الهوى، فقول الله عز وجل:﴿ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[34] وقوله :﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ

---

[28] قدامه بن جعفر، كتاب نقد النثر، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ط 1402هـ- 1982م ص117.

[29] سورة العنكبوت، الآية 36.

[30] سورة النحل، الآية 111.

[31] سورة الأنعام، الآية 80.

[32] سورة الأنعام، الآية 83.

[33] سورة النحل، الآية 128.

[34] سورة النساء، الآية 109.

فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.[35]

ووصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صديقا كان له في الجاهلية[36] فقال كان:"لا يشاري ولا يماري وقال:"من تسمع سمع الله به" وقال بعضهم:"المراء يفسد الإخاء" وأنشد:

فدع المراء إذا نطقت فإنه *** يغرى بك الأعداء والحساد

وقال:"دع المراء لقلة خيره" وقال أمير المؤمنين (رضي الله عنه) لابن الكواء[37] "سل تفقها ولا تسأل تعنتا" .

ويواصل قدامه بن جعفر حديثه عن موضوع الجدل وكيف يكون وما هي أسسه فيقول:"وحق الجدل أن تبنى مقدماته مما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن في نهاية الظهور للعقل. وليس هذا سبيل البحث، لأنّ حق الباحث أن يبني مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه وأبينها لعقله، لأنه يطلب البرهان، ويقصد لغاية التبيين والبيان، وألا يلتفت إلى إقرار"[38]

فأما المجادل، فلما كان قصده أنه إنما هو إلزام خصمه الحجة، كان أو كد الأشياء في ذلك أن يلزمه إياها من قوله ذلك مثل قول الله عز وجل لليهود لما أراد إلزامهم الحجة فيما حرموه على أنفسهم بغير أمر ربهم:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ

---

[35] سورة الشورى، الآية :16.

[36] هو النائب بن أبي وداعة القرشي السهمي. والمدارات التمادي في الخصومة.

[37] هو عبد الله بن الكواء البشكري من زعماء الخوارج.

[38] قدامه بن جعفر كتاب نقد النثر ص 118.

فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[39] .

المناظرة :

لغة: من النظير وهو الشبيه، أو من النظر بالبصر أو البصيرة.

و إصطلاحا: حوار ومناقشة، أو محاضرة يشترك فيها اثنان أو أكثر، بحيث يتبنى كل واحد رأيا مخالفا يحاول أن يعرضه مع براهينه تأييدا لرأيه، دحضا لرأي خصمه، والفائز من المناظرين صاحب البراهين الدامغة، والأسلوب الرشيق، والبراعة في الحديث.

و عرف العرب منذ مطلع العصر العباسي مبدأ المناظرة، وكان أشبه بالمجاورة يجريها لفيف من العلماء بحضور الخليفة أو الأمير غالبا، بناء على رغبته، حول بعض القضايا في الدين، أو الفكر، أو التاريخ.[40]

وجاء في كتاب جواهر الأدب لأحسد الهاشمي ما نصه:

للمناظرة ثلاثة شروط :

الأول: أن يجمع بين خصمين متضادّين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصهما بالمقابلة كالربيع والخريف والصيف والشتاء.

والثاني: أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه وتفنيدا مزاعم قرنه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتحط من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع عنه إليه.

والثالث: أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغا حسنا وترتب على سياف محكم ليزيد بذلك نشاط السامع وتنمي فيه الرغبة في حل المشكل".[41]

---

[39] سورة آل عمران، الآيات : 93 - 94..

[40] ينظر محمد التنوجي، المعجم المفصل في الأدب ، بيروت - لبنان ، دار الكتب العلمية ط 2، 1419 هـ - 1999 م. ج 2. ص828.

[41] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج 1،2 ، ص 140.

وقال المزني: "لا تعد والمناظرة إحدى ثلاث: إما تثبيت لما في يديه أو انتقال من الخطأ كان عليه أو ارتياب فلا يقدم من الدين على شك و كيف ينكر المناظرة من لم ينظر فيما به بردها. وحق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل وأن يقبل منها ما يتبين وقالوا لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين والفهم والعقل والإنصاف وإلا فهو مراء ومكابرة.[42]

المناظرة وعلم الكلام :

وتاريخ المناظرة جزء من تاريخ علم الكلام بل هو قطبه ولبابه، وعلم الكلام ربيب للعربية نشأ في أحضانها ونهل من ينابيعها وإستمد مباحثه منها[43] وأشهرالمسائل التي دار حولها علم الكلام مسألة كلام الله تعالى أنه قديم أو حادث، ومسألة ذات الله عز وجل وصفاته، وهي من أشهر المسائل التي سميت من أجلها الإعتقاديات بإسم علم التوحيد، مبناها على النظر في معاني الآيات القرآنية التي وردت فيها الإشارة إليها، وهذه الآيات هي التي يقال لها آيات الصفات لما تتضمنه منها كالإستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[44].

والوجه في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[45] ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[46] والعين في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [47] واليد الفوقية في قوله:﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ

---

[42] ابن عبد البر، الجامع لبيان العلم و فضله، بيروت- لبنان ، دار الكتب العلمية ، ط1، 1398هـ-1978م، ج 2، ص 108.

[43] ينظر : د.لطفي عبد البديع ، فلسفة المجاز بين البلاغة العربية و الفكر الحديث ، الجيزة - مصر ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجان ، ط 1 ، 1997 ، ص 25.

[44] سورة طه، الآية 5.

[45] سورة القصص ، الآية 88

[46] سورة الرحمان، الآية 27.

[47] سورة طه، الآية 39.

أَيْدِيهِمْ﴾[48] و اليمين في قوله:﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[49] وأمثالها مما يدخل في المتشابه، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى.[50]

ولما سئل مالك بن أنس (رحمه الله) فقيل له يا عبد الله (الرحمان على العرش إستوى) كيف إستوى؟ فأطرق مالك وعلاه الرخضاء -يعني العرق- وانتظر القوم ما يجيء منه فيه، فرفع رأسه إلى السائل وقال:«الاستواء مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأحسبك رجل بدعة» وأمر به فأخرج، وروي في ذلك أيضا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمان أستاذ مالك.

وقال سليمان بن عمران:"سمعت أسدا ابن الفرات يقول بلغني أن قوما كانوا يتناظرون بالعراق في العلم. فقال قائل: من هؤلاء فقيل قوم يقتسمون ميراث رسول الله صلى عليه وسلم.[51]"

وأما تناظر العلماء وتجادلهم في مسائل الأحكام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أكثر من أن تحصى وسنذكر منها شيئا يستدل به: قال زيد ابن ثابت لعلي في المكاتب: أكنت راجمه لو زنى قال: لا. قال: فكنت تجيز شهادته. قال: لا. قال: فهو عبد ما بقى عليه درهم: وقد ذكر معمر عن قتادة أن عليا قال في المكاتب يورث بقدر ما أدى و احتج زيد أيضا على من خالفه من الصحابة إذا خاصموه في ذلك بان المكاتبين كانوا يدخلون على أمهات المؤمنين ما بقى على أحد من كتابتهم شيء ويقول زيد يقول فقهاء الأمصار.[52]

---

[48] سورة الفتح، الآية 10.

[49] سورة الزمر، الآية 67.

[50] د.لطفي عبد البديع ، فلسفة المجاز بين البلاغة العربية و الفكر الحديث ، مرجع سابق ، ص 25.

[51] ابن عبد البر، جامع بيان العلم و فضله، مصدر سابق، ج2، ص 108.

[52] المصدر نفسه، ج2 ص 107 .

وناظر عبيد الله بن عمر أباه في المال الذي أعطاه إياه أبو موسى الأشعري هو وأخاه وقال عبيد الله لو تلف المال ضمناه فلنا ربحه بالضمان.

قال سليمان بن سالم في الحامل تلد ولدا و يبقى في بطنها ولدا آخر أن لزوجها عليها الرجعة. وقال عكرمة لا رجعة له عليها لأنها قد وضعت فقال لها سليمان أيحل لها أن تتزوج قال لا قال خصم العبد وقال بن عباس ليتق الله زيد أيجعل ولد الولد بمنزلة الولد لا يجعل أب الأب في منزلة الأب إن شاء باهلته عند الحجر الأسود: وعن ابن عباس من شاء باهلته أن الظهار ليس من الأمة إنما قال الله ﴿من نسائهم﴾. وقيل لمجاهد في هذه المسالة أليس الله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾[53] فليس الأمة من النساء فقال مجاهد قد قال الله تعالى:﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[54] أفليس العيد من الرجال غير المراد بالشهادة فكذالك الأمة من النساء غير المراد بالظهار وهذا عين القياس.[55]

وناظر أبو هريرة عبد الله بن سلام في الساعة التي في يوم الجمعة على حسب ما ذكره مالك في موطئه، وناظر سعيد بن المسيب ربيعة في أصابع المرأة، وناظر عمر بن الخطاب أبا عبيدة في حديث الطاعون.[56]

وكان سفيان بن عيينة يقول: كل ما وصف الله تعالى من نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه، والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة[57].

وهذا السكوت ليس سكوت العاجز الذي لا يقدر على الجواب، بل هو سكوت الذي راعه جلال الألوهية، واستغرقته الآيات البينات، فكان إنسانا إلهيا لا يجاذل ولا

---

[53] سورة المجادلة، الآية 3.

[54] سورة البقرة، الآية 282.

[55] ابن عبد البر، جامع بيان العلم و فضله، المصدر السابق، ج 2 ، ص 108.

[56] المصدر نفسه. ج2، ص 108 .

[57] لطفي عبد البديع، فلسفة المجاز، مرجع سابق، ص25.

يماري، كأنه يتوخى بذلك وجها من وجوه الإيمان بالتنزيل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[58].

وكما هو ثابت في عمل الصحابة ومن جاء بعدهم، فقد جادل عمر بن الخطاب اليهود في جبريل وميكائيل، وناظر علي الخوارج كما ناظرهم إبن عباس بما لا مدفع فيه للحجة.

غير أن سبيل السلف كانت غير سبيل المتكلمين، فسبيل السلف الوحي والمعرفة الإجمالية الحية التي تقوم على الرغبة والرهبة، واحتضان الكلمة الإلهية بالوجود الإنساني كله، من حيث كانت كلمات السماء إلى الأرض تلقي معانيها صور التحول في الكون وهي أحكام تستقيم بها الحياة ويتقرر بها مصير البشر ونقرأ قوله تعالى:(يا يحي خذ الكتاب بقوة) كأن القوة التوتر الذي يرتجف معه القلب بالكيان الإنساني وأما سبيل المتكلمين فالمعرفة العقلية التفصيلية التي لا تزال بالدليل تنقضه، والحجة تولد منها حجة أخرى وتناجز الأفكار فتشققها إلى أجزاء، حتى تنتهي إلى الجزء الذي لا يتجزأ، وهذا من مقولاتهم التي يعولون عليها في البرهان[59].

والمعتزلة هم أول من لجوا هذا الباب وكانت اللغة في أيديهم أداة طيعة تحتمل وجوها من التأويل، وظهرت ألفاظ التوحيد والتنزيه والتشبيه والتجسيم، يتخذونها كالأقانيم يديرون عليها حججهم وبراهينهم، والسلف لم يكونوا يعرفون شيئا منها وهم

---

[58] سورة آل عمران، آية 7، 8.

[59] المرجع السابق، ص 30.

تيلون قوله تعالى:﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله:﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ وغيرها من آيات الصفات.

وحديثنا عن المعتزلة يسوقنا إلى ذكر ما جرى للإمام أحمد بن حنبل في محنة القرآن فقد إستدعى وإلى العراق إسحاق بن إبراهيم وجوه العلماء و الفقهاء ليأخذ إقرارهم جميعا ويبعث به إلى المأمون، فأقروا بما طلب إليهم ما عدا أربعة أمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم التالي أجابه اثنان وامتنع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إلى المأمون وفي الطريق عبر إبن جعفر الأنباري الفرات وذهب إلى حيث كان أحمد بن حنبل وسلم عليه فقال له أحمد: يا أبا جعفر تعنيت فقال: ليس في هذا عناء، وقال له:أنت اليوم رأس والناس يعتقدون بك فوا لله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله – وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا إن لم يقتلك المأمون تموت، ولابد من الموت فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء قال: فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله ما شاء الله ثم جاءهم الخبر بموت المأمون، ومات محمد بن نوح في الطريق فإستراح وذهب إلى ربه راضيا مرضيا[60].

وفي سجن أحمد الذي طرح فيه ثمانية وعشرين شهرا بقي صامدا فلم يغير رأيه و لم يبدل موقفه واشتدت عليه المحنة وبلغت أقصاها ودخل عليه عمه يقول: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله و بقيت أنت في الحبس والضيق. فقال أبو عبد الله: يا عم: إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق؟ فذكر له ما روي في التقية من الأحاديث فقال: كيف تضعون بحديث خباب؟ إنه كان من قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه، فيئس منه.

ثم قال أحمد: لست أبالي الحبس ما هو ومنزلي إلا واحد ولا قتلا بالسيف إنما أخاف فتنة السوط وأخاف أن لا أصبر، فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك فقال:

---

[60] ينظر الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، في أصول الحوار ، ص 82.

لا عليك يا أبا عبد الله ما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي فلما سمع ذلك سري عنه.

وعندما مثل بين يدي المعتصم ورفض الانصياع لرغبتهم في القول بخلق القرآن وطال المجلس أمر المعتصم أن يأخذوه وتقدم الجلاد فلما ضرب أحمد سوطا قال: بسم الله، فلما ضربه الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضربه الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضربه الرابع قال: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، واستمر الجلد مائة وخمسين سوطا حتى أغمي عليه وعاد الإمام إلى بيته يقول: والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولو وددت أن أنجو من هذا الأمر كفافا لا علي ولا ليّ.

ولما جاء الواثق أصدر أمره لأحمد: (لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه).

فأقام الإمام أحمد في داره لا يخرج إلى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقي درسا حتى مات الواثق.[61]

المحاجاة:

لغة: اللجاجة أي التمادي في الخصومة والجدال.

و **إصطلاحا:** سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو الطريقة التي تطرح بها الأدلة[62].

والحجة ما يراد به إثبات أمر أو نقضه. ومن هذا الوجه تكون الحجة مرادفة للاستدلال[63]، يقول الغزالي «:والحجة هي التي يؤتى بها في إثبات ما تمس الحاجة إلى إثباته من العلوم التصديقية، وهي ثلاثة أقسام: قياس واستقراء وتمثيل[64]».

---

[61] ينظر المرجع السابق ص 84.

[62] ينظر: مراد وهبه، المعجم الفلسفي، القاهرة، مصر، دار مأمون للطباعة، ط3 1979 م، ص 393.

[63] ينظر: المرجع نفسه، ص 163.

[64] أبو حامد الغزالي، معيار العلم.

ويقول ابن سينا:«جرت العادة بأن يسمى الشيء الموصل إلى التصديق حجة فمنه قياس ومنه استقراء ونحوهما[65]».

ويقول ابن عبد البر في قول الله عز وجل «:فلم تحاجون فيما ليس لكم به علـــم» دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح سائغ لمن تدبر[66]».

ونذكر مثلا للمحاجة تلك التي وقعت بين عمر بن عبد العزيز والخوارج.

محاجة عمر ابن عبد العزيز الخوارج:

عن جرير بن حازم عن محمد غبن سليم أحد بني ربيعة بن حنظلة بن عدى قالوا: خالفت أهل بيتك وسميتهم الظلمة فأما أن يكونوا على الحق أو يكونوا علـــى البـــاطل فـــإن زعمت أنك على حق وهم على الباطل فألعنهم وتبرأ منهم فإن فعلت فنحن منك وأنت منا وإن لم تفعل فلست منا ولسنا منك.

فقال عمر: إني قد علمت أنكم لن تتركوا الأهل والعشائر وتعرضتم القتل والقتـــال إلا وأنتم ترون أنكم مصيبون ولكنكم أخطأتم وظلمتم وتركتم الحق، أخـــبروني عن الدين أ واحد أو اثنان.

قالوا: لا بل واحد، قال فليسعكم في دينكم شيء يعجز عني. قالوا لا.

قال: أخبروني عن أبي بكر وعمر ما حالهما عندكم، قالوا: أفضل أســـلافنا أبـــو بكـــر وعمر، قال :ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي ارتدت العـــرب فقاتلهم أبو بكر فقتل الرجال وسبي الذرية والنساء، قالوا: بلى، قال عمر بن عبد العزيز: فلما توفي أبو بكر قام عمر رد النساء والذراري على عشائرهم. قالوا: بلى، قال عمـــر: فهل تبرأ عمر من أبي بكر ولعنه بخلافه إياه، قالوا: لا. قال: فتتولونهما على اختـــلاف سيرتهما. قالوا: نعم. قال عمر: فما تقولون في بلال بن مرداس قالوا: من خير أســـلافنا

---

[65] ابن سينا ، الإشارات و التنبيهات، القاهرة، مصر دار المعارف، ط2، 1971، ج1 ، ص 181

[66] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج 2 ، ص108.

بلال بن مرداس. قال: أفلستم قد علمتم أنه لم يزل كاف عن الدماء والأموال وقد لطخ أصحابه أيديهم في الدماء والأموال فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى أو لعنت إحداهما الأخرى. قالوا: لا قال فتتولونهما جميعا على اختلاف سيرتهما. قالوا: نعم. قال عمر: فأخبروني عن عبد الله بن وهب الراسي حين خرج من البصرة هو و أصحابه يريدون أصحابكم بالكوفة فمروا بعبد الله بن خباب فقتلوه وبقروا بطن جاريته ثم عدوا على قوم من بني قطيعة فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال وغلوا الأطفال في المراجل وتأولوا قول الله:﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[67] ثم قدموا على أصحابهم من أهل الكوفة وهم كافون عن الفروج والدماء والأموال فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى. قالوا لا. قال عمر فتتولونهما على اختلاف سيرتهما قالوا: نعم. قال عمر: فهؤلاء الذين اختلفوا بينهم في السيرة والأحكام لم يتبرأ بعضهم من بعض على اختلاف سيرتهم و وسعهم و وسعكم ذلك ولا يسعني حين خالفت أهل بيتي في الأحكام والسيرة حتى ألعنهم وأتبرأ منهم أخبروني عن اللعن أفرض على العباد. قالوا: نعم قال عمر لأحدهما: متى عهدك بلعن فرعون، قال: مالي بذلك عهد منذ زمان فقال عمر: هذا رأس من رؤوس الكفر ليس لك عهد بلعنه منذ زمان وأنا لا يسعني ألعن من خالفتهم من أهل بيتي وذكر تمام الخبر. قال أبو عمر: هذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو ممن جاء عنه التغليظ في النهي عن الجدال في الدين وهو القائل من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل ولما أخطر وعرف الفلج في قوله ورجى أن يهدي الله به لزمه البيان فبين وكان أحد الراسخين في العلم رحمه الله.[68]

---

[67] سورة نوح، الآية 27.

[68] المصدر السابق، ج2، ص105-106 .

وقال الأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى– في ظلال هذه الآية من سورة النحل "...والجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل لـــه وتقبيـــح حتـــى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنـــه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الـــرأي وقيمتهـــا عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها والجدل بالحسنى هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمـــة، و أن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في ســـبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر ولكي يطامن الداعية من حماسته عن ســـبيله والأعلم بالمهتدين، فلا ضرورة للحاجة في الجدل، إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله[69].

الحـــوار في الســـيرة النبـــوية :

وأما نبينا الخاتم (صلى الله عليه وسلم)، فسيرته العطرة زاخرة بالمواقف الحكيمـــة التي حاور فيها قومه وحاجهم. وقد كان له النصيب الأوفى والأكمـــل مـــن قـــول الله عز وجل له :﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[70].

نذكر مثالين من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) :

المثال الأول :

بعث المشركون عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله (صلى الله عليـــه وســـلم) أمورا لعله يقبل بعضها فيعطي من أمور الدنيا ما يريد. فجاء عتبـــة حتـــى جلـــس إلى

---

[69] سيد القطب، في ظلال القرآن، ج4، ص 202.

[70] سورة النحل، الآية 125.

رسول الله (صلى الله عليه وسلم): فقال:"يا بن أخي إنّك منا حيث قد علمت من الشطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها".

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):"قل يا أبا الوليد اسمع" قال:"يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رأيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرؤك منه، فإنّه ربما غالب التابع على الرجل حتى يداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستمع منه، فقال:" أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاستمع مني.

قال: أفعل.

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم:﴿ حم تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.[71]

ثم مضى رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها. وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه. ثم انتهى رسول الله، (صلى

---

[71] سورة فصلت، الآية 1.

الله عليه وسلم)، إلى السّجدة فيها فسجد، ثم قال:"قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك"[72].

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، وطلب عتبة إليهم أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وشأنه، فأبوا وقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بلسانه. وفي هذه القصة أكثر من درس- فيما يتصل بموضوع هذا البحث- يحسن الوقوف عندها، فالرسول الكريم أحسن الاستماع لعتبة وقال له: قل يا أبا الوليد أسمع، فلما قال عتبة ما عنده، أعطاه الرسول الفرصة لإضافة شيء قد يود أن يقوله، ربما نسيه أو غفل عنه .

وسأله: أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ ومعنى ذلك أنه أحسن الاستماع تماما، وأعطى محدثه الفرصة ليقول من جديد دون أن يعاجله، فلما سأله ليتأكد من فراغه مما لديه، بدأ التلاوة، وهذا قمة الأدب، وقمة الذوق، مما يجعل الطرف الأخر تتفتح نفسه للسماع، فكانت تلك المقدمة المحمودة لما جاء بعدها وهو تلاوة آيات من الذكر الحكيم، تنتهي بسجدة سجدها عليه الصلاة والسلام، ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذلك، (أي وما تختار) ففي تصرفه عليه الصلاة والسلام أدب عال، وذوق جم، وحسن استماع منه يستدعي حسن إصغاء من عتبة، وهدا كله يجعل عتبة مستعدا للتلقي، لذلك لا غرابة أن قال له قومه بعد إذ عاد إليهم: سحرك يا أبا الوليد بلسانه[73]

المثال الثاني:

وفي أعقاب معركة حنين نجد درسا آخر في موقف مختلف جدير بالتوقف والنظر الطويل نلقي فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محاورا بطريقة أخرى.

---

[72] ابن هاشم، السيرة النبوية، لبنان- بيروت،دار الفكر للطباعة والنشر ، ج 1،2 ص312،313.

[73] المصدر نفسه، ج4، ص146.

وزع الرسول الغنائم – وكانت كثيرة – في قريش وفي قبائل العرب، و لم يعط الأنصار منها شيئا، فغضب بعضهم، وقال منهم قائل: (لقي والله رسول الله قومه) فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفي الذي أصبت ، فقسمت في قومك، و أعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، و لم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

فخرج سعد فجمع الأنصار فأتاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلال فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، قالوا: بلى والله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار، قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتكم، وصدقتم، وصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، و عائلا فآسيناك أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قلوب قوم ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء، الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا .

إن في هذه الواقعة دروسا بليغة ومفيدة، فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يلم سعدا لأنه لم يرد على الأنصار الذين غضبوا و لم يناقشه في حجته التي فيها ما فيها،

بل إنه لم يسأل عن الشخص الذي قال (لقي و الله رسول الله قومه) وفيها أنه حاباهم وأعطاهم فوق حقهم بدافع العصبية، بل إنه سؤالا عاما، ليجعل الحديث للجميع، وليواجه المشكلة من أساسها.

وبدأ سؤاله العاتب عليهم وثنى على ذلك بذكر الفضل الكبير الذي فاز به الأنصار إذ أسلموا فانتقلوا من الضلال إلى الهدى، ومن الفقر إلى الغنى و من العداوة إلى التآلف[74].

ولما كان من الطبيعي أن يجول في قلوب الأنصار أنهم أيضا أعطوا الرسول صلى الله عليه وسلم ونصروه وصدقوه ، وهذه كلها مزايا، وهي حق، قالها المصطفى عليه الصلاة و السلام نيابة عنهم، ليقر لهم بالجميل، فذكر أنهم صدقوه، وقد جاءهم مكذبا ونصروه وقد جاءهم مخذولا، وآووه وقد جاءهم طريدا وواسوه وقد جاءهم عائلا.

وبعد أن عاتبهم من ناحية وأرضى قلوبهم من ناحية، ختم كلامه معهم بأن أقر لهم أنهم أعلى كعبا في الإسلام لذلك وكلهم إلى إسلامهم، ثم بين لهم المنة الكبرى التي فازوا بها إذ يذهب الناس بالشاة والبعير، أما الأنصار فإنهم يعودون بخاتم الأنبياء وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ثم دعا بالرحمة لهم ولأبنائهم ولأحفادهم.

لذلك وجدنا الأنصار يبكون، ويفرحون ويقولون في غبطة وسعادة رضينا برسول الله قسما وحظا.[75]

الحوار في عهد الصحابة :

وعلى هذا المنهاج القويم في المحاورة والمناظرة سار الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، ومن المناظرات الشهيرة في التاريخ الإسلامي: مناظرة عبد الله بن عباس رضي الله

---

[74] ينظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار، ص108.

[75] ينظر: المرجع السابق، ص22.

عنهما، للخوارج. لقد كان لهذه المناظرة تأثير كبير على سير الأحداث بعد ذلك، حيث تجلت إمامة بن عباس، وعمق فقهه، وقدرته على المحاورة والمناظرة. وها هو ذا سياق هذه المحاورة:

عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما- قال: لما اعتزلت الحريرية، قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة فلعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم. قال: إني أتخوف عليك. قال: قلت: كلا إن شاء الله. فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، ثم دخلت عليهم وهم قائلون في بحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أر قوما أشد اجتهادا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل و وجوههم معلمة من أثار السجود. قال: فدخلت، فقالوا مرحبا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟

قال: جئت أحدثكم على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نزل الوحي وأعلموا بتأويل.

فقال بعضهم لا تحدثوه..! وقال بعضهم: لنحدثنه.

قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عمي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وختنه وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معه؟

قالوا: ننقم عليه ثلاثا.

قلت: ما هم؟

قالوا: أو لهن أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[76].

قال: قلت: وماذا؟

قالوا: قاتل و لم يسبب و لم يغنم، لان كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم، وإن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماؤهم.

قال: قلت: وماذا؟

---

[76] سورة الأنعام: الآية، 57.

قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين. فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت: أرأيت إن قرأت عليكم كتاب الله المحكم، فحدثتكم عن سنة نبيكم ما لا تنكرون أترجعوه؟!

قالوا : نعم.

قال: قلت: أما قولكم أنه حكم الرجال في دين الله، فإن الله يقول:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.[77]

وقال في المرأة وزوجها:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾.[78]

أنشدكم الله أفحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟

قالوا: في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم.

قال: أخرجت من هذه؟!

قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: قائل و لم يسب و لم يغنم، أتسبون أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله تعالى يقول:﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[79] وأنتم مترددون بين ضلالتين، فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؟

---

[77] سورة المائدة: الآية، 95.

[78] سورة النساء الآية: 35.

[79] سورة الأحزاب: الآية 6.

قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينهم وبينه كتابا، فقال: اكتب، هذا ما قضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وقاتلناك.

ولكن أكتب: محمد بن عبد الله، فقال:"والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، أكتب يا علي: محمد بن عبد الله، ورسول الله كان أفضل من علي، أخرجت من هذه؟

قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم عشرون ألفا. وبقي منهم أربعة ألاف،فقتلوا.

ثم درج التابعون من بعدهم على المنوال ذاته من المحاورة والمناظرة، وتاريخ أولئك الأبرار حافل بالشواهد على هذا نصرة للحق وأهله، وردا على الباطل وأهله. ومناظرة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل للمعتزلة من الأمثلة العظيمة المسطرة في الفكر الإسلامي.. وأما مناظرات شيخ الإسلام ابن تيمية ومحاوراته مع المخالفين لمنهج السلف الصالح، فأشهر من أن تذكر. [80]

الحوار في عصر التابعين:

وسار التابعون على نهج الصحابة واعتمدوا منهجية علمية في الحوار ترتكز على أصول شرعية أهمها: العلم وحسن الفهم، وتحديد الهدف والتأصيل الشرعي للمسألة.

1- العلم:

لا بد للمحاور أن يكون عالما بالمسألة التي يريد أن يحاور فيها، قادرا على النظر والموازنة والترجيح بين الأدلة المختلفة، قادرا على الاستنباط والجمع بين أطراف الأدلة،

[80] ينظر: أحمد بن عبد الرحمن الصويان، الحوار، أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص26.

يعرف الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والخاص والعام، والصحيح والضعيف، وهي كلها أدوات علمية يدخل بها المحاور ساحة الحوار.

والله عز وجل ذم الذين يجادلون في الله بغير علم فقال تعالى﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾.[81]

وقال الله تعالى﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.[82]

وقال الله تعالى﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.[83]

فالجاهل حقه السؤال و الاستنارة بما عند العلماء، فلا يحق له أن يدخل هذا المضمار إلا محاورا محاورة المستبصر الذي يريد الوصول إلى الحق على أيدي العلماء و أما إذا دخل دخول المجادل أو المناظر: فهو بجهله وقلة بضاعته قد ينصر الباطل، أو يقصر في نصرة الحق .

وكما أن اعتماد العلم أصلا من الأصول المنهجية للحوار يخرج الجاهل من دائرة الحوار فهو في الوقت ذاته يخرج المتعصب والمقلد أيضا لأنهما لا يجيدان إلا ترديد الأقوال، بدون عمق أو وعي بدلالات النصوص ومراميها.

2- حسن الفهم:

ويراد به حسن فهم حجج الطرف الآخر وأدلته و أقواله، وهذا يصير بالحوار إلى وجهته الصحيحة و لا يترك مجالا لإطالته وتشعب مسائله واختلاف أطرافه ولهذا قال أحد الشعراء:

و كم من عائب قولا صحيحا *** وآفته من الفهم السقيم.

---

[81] سورة الحج، الآية 8.

[82] سورة الإسراء، الآية 36.

[83] سورة آل عمران، الآية 66.

و أوصى يحي ابن خالد ابن جعفر فقال: لا ترد على أحد جوابا حتى تفهم كلامه، فان ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكد الجهل عليك، ولكن افهم عنه فإذا فهمته فأجبه ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام ولا تستحي أن تستفهم إذا لم تفهم فان الجواب قبل الفهم حمق، وإذا جهلت فسأل فيبدو لك، واستفهامك أجمل بك، وخير من السكوت على العي.[84]"

والفهم ركيزة رئيسة للحوار، لأن سوء الفهم قد يجعل المرء يقبل الباطل أو يرفض الحق، أو يحمل المسائل ما لا تحتمل.

ويحدث سوء الفهم لأسباب عديدة أبرزها: قلة العلم، والخلفيات الفكرية المسبقة، والاختلاف في استعمال الألفاظ والمفاهيم.

3- تحديد الهدف:

وكان يعرف عند الأصوليين بتحرير محل النزاع ومنهجهم العلمي في الحوار كان يقوم على تحديد نقاط الاختلاف بين المتحاورين بدقة ، يبدأ بالأهم فالمهم، فينتقل الحوار من الأصول إلى الفروع ، ومن الكليات إلى الجزئيات بتناسق علمي مطره .

قال الربيع ابن سليمان:"كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسالة فغدا إلى غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد.[85]"

و قال الخطيب البغدادي في ذكر آداب الجدل والمناظرة:"ويكون كلامه يسيرا جامعا بليغا، فان التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار ما يخفي الفائدة ويضيع المقصود، ويورث الحاضرين الملل[86]"وقال الجوينس في ذكر الجدل:"وعليك بمراعاة كلام

---

[84] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج1، ص64.

[85] المرجع نفسه، ص 64.

[86] المرجع نفسه، ص 65.

الخصم وتفهم معانيه على غاية الحد والاستقصاء، فان فيه آمانا من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك، فيسهل عليك عند ذلك وضع كل شيء موضعه.[87]"

فتحديد الهدف إذا وسيلة من وسائل ضبط الحوار، وذلك يمنع تشعبه ودخوله في متاهات واستطرادات لا طائل من ورائها.

4- التأصيل الشرعي:

وهو الأصول المرجعية المعتمدة المتفق عليها يرجع إليها لمعرفة الحق من الباطل والراجح من المرجوح والفاضل من المفضول.

ومحور المنهج الشرعي عند المسلمين يعتمد على النص الشرعي كما قال الحق تبارك وتعال:﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[88] وقال الله تعال: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.[89]

و الرد إلى الكتاب والسنة النبوية الصحيحة هو الذي يدرأ النزاع.

و لهذا قال عبد العزيز ابن يحيى للخليفة المأمون أثناء مناظرته النزاع لبشر المريسي: "كل متناظرين على غير أصل يكون بينهما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهما كالسائر على غير طريق، وهو لا يعرف المحجة فيتبعها، ولا يعرف الموضع الذي يريد فيقصده، وهو لا يدري من أين جاء فيرجع فيطلب الطريق وهو على ضلال ، ولكنا نؤصل بيننا أصلا فإذا اختلفنا في سيء من الفروع رددناه إلى الأصل فان وجدناه فيه وإلا رميناه به و لم نلتفت إليه.

قال المأمون: نعم ما قلت، فاذكر الأصل الذي تريد أن يكون بينكما.

قلت: يا أمير المؤمنين الأصل بيني وبينه ما أمر به الله عز وجل واختاره له وعلّمناه وأُدبنا به في التنازع والاختلاف، و لم يكلنا إلى غيره ولا إلى أنفسنا واختبارنا

---

[87] المرجع السابق، ج1، ص 65.

[88] سورة الشورى، الآية 10.

[89] سورة النساء، الآية 59.

فنعجز، قال المأمون: وهل ذلك موجود عن الله عز وجل؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال: فأذكر ذلك قلت :قال الله عز وجل:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.[90]

وهذا تعليم من الله وتأديب واختيار لعباده المؤمنين.[91]

لقد سار سلفنا الصالح وائمتنا الكرام على هذا النهج القويم من الحوار والمناظرة ومن جميل المناظرات العلمية نذكر هذه المناظرة التي جرت بين الإمامين الجليلين: الشافعي وإسحاق ابن راهوية لما تناظرا في كراء بيوت مكة حيث قال الشافعي لأخيه إسحاق: قال الله تعالى:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾.[92] فنسب الديار إلى مالكها أم إلى غير مالكها؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فنسب الديار إلى أربابها أم إلى غير أربابها واشترى عمر ابن الخطاب دارا للسجن من مالك أو من غير مالك وقال النبي صلى الله عليه وسلم: وهل ترك لنا عقيل من دار؟.

قال إسحاق: فقلت: الدليل على صحة قولي: أن بعض التابعين قال به.

فقال الشافعي لبعض الحاضرين: من هذا...؟

فقيل: إسحاق ابن إبراهيم الحنظلي.

فقال الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم.

فقال إسحاق: هكذا يزعمون.

---

[90] سورة النساء، الآية 59.

[91] أحمد الصويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص 56 .

[92] سورة الحشر، الآية 08.

فقال الشافعي: ما أحوجني أن يكون غيرك فكنت آمر بعرك أذنيه، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول عطاء وطاووس والحسن وإبراهيم وهل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة؟

تذكر مثلا آخر لحوار رائع جرى بين الحجاج بن يوسف الثقفي [93] بما أشتهر عنه من الظلم وبين العالم الجليل سعيد بن جبير وهو من التابعين وكان قد خرج على بني أمية وانظم إلى الخارجين عليهم ثم قبض عليه أدخل على الحجاج منهما بشق عصا الطاعة فسأله الحجاج متباهلا: من أنت؟.

قال: سعيد بن جبير.

قال الحجاج متهكما: بل شقي بن كسير.

قال سعيد: أمي كانت أعلم باسمي واسم أبي منك.

قال الحجاج: شقيت وشقيت أمك.

قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى.

قال سعيد: لو علمت أن دلك بيدك لإتخذتك آلها

قال الحجاج: فما قولك في محمد؟

قال سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال الحجاج: فما قولك في علي: أهو في الجنة أم في النار؟

قال سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

قال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

قال سعيد: لست عليهم بوكيل.

قال الحجاج: فأيهم أحب إليك؟

---

[93] الندوة العالمية للشباب، في أحوال الحوار، مرجع سابق، ص 85.

قال سعيد: أرضا هم لخالقي.

قال الحجاج: أيهم أرضا للخالق؟

قال سعيد: علم دلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال الحجاج: أحب أن تصدقني.

قال سعيد: إن لم أجبك لم أكذبك.

قال الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

قال سعيد: وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار؟.

قال الحجاج: فما بالنا نضحك .

قال سعيد: لم تستوي القلوب.

ثم أمر الحجاج أن يعزفوا بالعود والناي فامتعض سعيد، وأمر بالخروج فخرج يضحك فاستدعاه الحجاج وسأله: لم تضحك ؟

قال من جراءتك على الله، وحلم الله عليك.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد.

قال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

قال سعيد: اختر أنت لنفسك فالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك. الله مثلها في الآخرة.

قال الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟

قال سعيد: إن كان العفو فمن الله وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر وإلى هدا الحد يلتفت الحد الحجاج إلى زبانيته فيأمرهم: أقتلوه.

فيقول سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: وجهوه لغير القبلة.

قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال الحجاج: كبوه على وجهه.

قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: إذبحوه.

قال سعيد: أما أنا فأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسـوله، خدها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، اللهم لا تسلطه على أحد بعدي.

وينتهي الحوار وتصعد روح العالم الجليل إلى مولاه تشتكي ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الحوار والاختلاف :

لقد عرف خير قرون الأمة وهم الصحابة والتابعين وأئمة الهدى فقه الاختـلاف، فلم يضرهم الاختلاف العلمي شيئا، وجهله الناس في عصرنا فأصبح بعضهم أعداء بعض.

كتب الأستاذ طه جابر العلواني كتابا حول (أدب الاختلاف في الإسلام)، اعتمد فيه المنهج التاريخي ويعد من أهم ما كتب في هذا المجال إضافة إلى ما كتبه الشيخ يوسف القرضاوي. ونحاول في هذا السياق أن نعرض أفكار هذا الكتاب[94] :

1- الاختلافات من حيث أسبابها وجذورها نوعان :

أ- اختلافات أسبابها خلقية.

ب- اختلافات أسبابها فكرية.

أما الأولي فهي معروفة عند العلماء والمربين وهي :

-الغرور بالنفس.

-سوء الظن بالغير.

---

[94] ينظر يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين اختلاف المشروع والتفرق المذموم ، الجزائر، مكتبة رحاب، ط 1989، ص 16.

-حب الذات وإتباع الهوى.

-التعصب لأقوال الأشخاص والمذاهب.

-العصبية لبلد أو إقليم أو جماعة أو قائد.

وهذه رذائل خلقية عدت من المهلكات في نظر علماء القلوب.

والثانية التي سببها فكري، مردها اختلاف وجهات النظر في الأمر الواحد.

الاختلاف ضرورة :

إن الذي أوجب هذه الضرورة: طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة.

1- طبيعة الدين: شاء الله بحكمته أن يكون في أحكامه المنصوص عليه والمسكوت عنه، وأن يكون في المنصوص عليه المحكمات والمتشابهات، والقطعيات والظنيات، والصريح والمؤول، لتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط.

ولهذا يقول الإمام الشاطبي:"فإن الله حكم بحكمته أن يكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالا للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات فلذلك لا يضر هذا الاختلاف.[95]"

2- طبيعة اللغة: تقتضي طبيعة اللغة في المفردات والتراكيب. أن يكون فيها اللفظ المشترك الذي يحتمل أكثر من معنى وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز، أو ما يقول المناطقة، ما يحتمل دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام أو اللزوم.

3- طبيعة البشر: وأما طبيعة البشر فقد خلقهم الله مختلفين فكل إنسان له شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وطابعه المنفرد، يبدو ذلك في مظهره المادي، كما في مخبره المعنوي.

---

[95] الشاطبي، كتاب الاعتصام، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان ، ط1، 1423 هـ-2002م، ج2، ص 168.

كما يتفرد كل إنسان بنبرة صوته، وبصمة بنانه، ولون تفكيره وميوله وذوقه، ونظرته إلى الأشياء والموافق والأعمال.[96]

وهذا الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، والتنوع دائما مصدر إثراء وخصوبة، وهو آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وبديع حكمته:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.[97]

4- طبيعة الكون والحياة:

وفي ذلك نقرأ قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.[98]

ولكن هذا الاختلاف ليس اختلاف تضارب وتناقض بل هو اختلاف تنوع وتلون، ولهذا تكررت في القرآن الكريم كلمة (مختلف ألوانه) في أكثر من سورة، وأكثر من مناسبة كما أن القرآن الكريم ينفي أي يضارب أو تعارض في الكون فتقرأ تعالى: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾.[99]

الاختلاف رحمة :

استقر هذا المفهوم بـ الاختلاف توسعة ورحمة - عند المتقدمين والمتأخرين.

وأورد الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام تحقيقا نافعا في هذا الأمر نلحظه فيما يأتي:" ثم إن هؤلاء المتفقين قد يعرض لهم الاختلاف بحسب القصد الثاني، لا بالقصد

---

[96] ينظر المرجع السابق، ص 64.

[97] سورة الروم، الآية 22.

[98] سورة فاطر، الآية، 27-28.

[99] سورة الملك، الآية 3.

الأول، فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الأمة قابلة للأنظار ومجالا للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف.[100]"

فالمختلفون في الفروع من أهل الرحمة.

و من أقوال عمر ابن عبد العزيز:"ما أحب أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلفون، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق وإنهم أئمة يقتدي بهم، فلو أخذ رجل بقول احدهم كان في سعة.[101]"

ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه.

ولهذا كان الاختلاف في خير قرون الأمة.

الاختلاف المذموم :

إذا كان الاختلاف في الفروع رحمة وسعة فإن الاختلاف المذموم الذي ورد في النصوص هو:

1- ما كان سببه البغي وإتباع الهوى وهو الذي ذم الله به اليهود والنصاري الذين دفعهم حب الدنيا وحب الذات إلى الاختلاف رغم قيام الحجة، ووضوح المحجة نقرأ قوله تعالى:﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.[102]

---

[100] الشاطبي، الاعتصام، مصدر سابق، ج2، ص 168.

[101] ينظر المرجع نفسه، ص 78.

[102] سورة البقرة، الآية 213.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.[103]

2- الاختلاف الذي يؤدي إلى تفرق الكلمة وتعادي الأمة، وتنازع الطوائف، ويلبسها شيعا، ويذيقها بعضها بأس بعض وهو ما حذر منه القرآن الكريم والسنة المطهرة، أشد التحذير نقرأ قول الله عز وجل﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.[104]

وفي هذا السياق نفسه يحذر من التفرق كما تفرق الذين قبلنا، فيصبنا ما أصابهم:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[105]

وفي موقف آخر يقول:﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[106]

الحوار ومنتهج الوسط :

يتجلى منهج الوسط في التوازن والاعتدال، بعيدا عن طرفي العلو والتفريط، فهذه الأمة أمة وسط في كل شيء، والوسط هو مركز الدائرة التي ترجع إليه الأطراف المتباعدة عن يمين وشمال[107]، وهو يمثل الصراط المستقيم، الذي علمنا الله تعالى أن نسأله الهداية إليه

---

[103] سورة آل عمران الآية 19.

[104] سورة آل عمران، الآية 103.

[105] سورة آل عمران الآية: 105 .

[106] سورة الأنفال الآية: 46.

[107] ينظر المصدر السابق، ص 95.

كلما قرأنا فاتحة الكتاب في صلواتنا اليومية أو خارجها ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو الذي جاء فيه قوله تعالى:﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.[108]

وهو الذي أوصانا الله تعالى أن نتبعه فتتوحد كلمتنا، ولا نتبع السبل والمناهج التي يدعو إليها شياطين الإنس والجن، مما صدر عن الغرب أو الشرق قال الله تعالى في خاتم الوصايا العشر من سورة الأنعام:﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[109]

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: خط رسول الله خطأ بيده، ثم قال:[110] هذه سبيل الله مستقيما، ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها بسيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ:﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[111] فالصراط المستقيم، هو الخط الوسط بين الخطوط الأخرى عن اليمين وعن الشمال.

التعاون في المتفق عليه والتسامح في المختلف فيه :

إذا كان التعاون في المتفق عليه واجبا، فأوجب منه هو التسامح في المختلف فيه، وهذا يمثل القاعدة الذهبية التي وضعها السيد محمد رشيد رضا التي تقول:"نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه."

---

[108] الأنعام، الآية 126.

[109] الأنعام، الآية، 153.

[110] الحديث رواه أحمد في مسنده في موضعين، (1424) و(4437) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (318/2) ورواه النسائي.

[111] الأنعام، الآية 153.

من هنا كان الواجب على المتحاورين التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء وما أكثرها وأن يرفعوا شعار "التعاون فيما نتفق عليه"، فإن هذا التعاون فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.[112]

والمتفق عليه يحتاج إلى جهود لا تتوقف، وعمل لا يكل، وإرادة لا تعرف الوهن، يحتاج إلى عقول ذكية وعزائم قوية، وأنفس أبيه وطاقات بناءة.

أما التسامح هنا فنقصد به: ألا يتعصب المتحاورين لرأي ضد رأي آخر، وهذا التسامح يقوم على جملة مبادئ نذكر منها :

1– احترام الرأي الآخر: الذي يقرب الشقة ويقلل حدة الخلاف وهو تقدير لوجهات النظر وإعطاء الآراء الاجتهادية حقها من الاعتبار.

2–إمكان تعدد الصواب :ومن أوضح الأمثلة على ذلك: تعدد أوجه القراءة في القرآن الكريم، الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، من طرق بلغت حد التواتر القطعي، وغدونا نرى أثره في القراءات السبع أو العشر المعروفة والتي يسمعها المسلمون في كل مكان ويرون اختلافها، ولا يجدون فيه أي جرح في دينهم، وهناك قضايا أخرى يمكن أن يتعدد فيها الصواب بقيود معينه.[113]

شرعية الحوار :

لما أراد الله عز وجل خلق– آدم – عليه الصلاة والسلام حصل حوار عظيم بينه وبين الملائكة الأبرار– عليهم السلام– وبقي هذا الحوار خالدا، يتلى إلى قيام الساعة حيث قال الله تعالى:

---

[112] المرجع السابق، ص 163.

[113] المرجع السابق، ص 164.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[114].

والمحاورة هي سنة الأنبياء، عليهم وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، مع أقوامهم فقد وهب الله نوحا، عليه السلام، جلدا وصبرا في جداله مع الكافرين لإقناعهم بالحق. ولبث فيهم زمنا طويلا يجادلهم بشتى الصور والوسائل، بهمته العالية وعزيمته الصادقة، ونفسه الطويل.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[115].

وبسبب هذه الجدية الحارة، والجلد العظيم، والحرص الكبير على تبليغ أمر الله - عزّ وجل- الذي لا يعرف الضعف أو الكلل: تبرأ به قومه وملوا منه.

---

[114] سورة البقرة، الآيات: 30-33.

[115] سورة نوح، الآيات: 5-10

قال الله عزّ وجل: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[116].

ووهب الله-عز وجل- إبراهيم الخليل، عليه السلام، قوة الحجة وظهور البرهان والقدرة على الإفحام، قال الله تعالى:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[117].

نكتفي بذكر مثالين فقط في محاجة إبراهيم- عليه السلام- قومه:

المثال الأول: محاجته مع الملك الكافر

قال الله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[118].

المثال الثاني: محاجته قومه

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ

---

[116] سورة هود، الآية: 32.

[117] سورة الأنعام، الآية: 83.

[118] سورة البقرة، الآية: 258.

هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[119].

2- عناصر الحوار :

لكي لا يكون الحوار عقيما في شكله ومضمونه لابد أن يتوفر مناخه الطبيعي الذي يعيش فيه وينمو ويحقق غرضه. جاء في كتاب الحوار القرآني للشيخ محمد حسن فضل الله قوله:"ويتمثل هذا المناخ في إيجاد القاعدة الأساسية للحوار وهي التحضير و التخطيط العملي لتوفير العناصر الأساسية لذلك، وفي مقدمتها أطراف الحوار ممثلة شخصية المحاور، وشخصية الطرف الثاني للحوار ولاسيما حالتهما النفسية، أي لا بد من توفير الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي المستقل البعيد عن الانفعالات"[120] ويواصل محمد حسن فضل الله قوله:"ثم على الطرفين معرفة فكرة أو موضوع الحوار بجميع جوانبه الخاصة والعامة لأن تحديد الموضوع الذي يدور حوله الحوار من شأنه أن يجنب الطرفين الجدل العقيم، وفي الأخير لابد من أسلوب يقود الفكرة ويقرب الطرفين من بعضهما البعض ولا يبعدهما عن الآخرين".[121]

وعليه فإن عناصر الحوار خمسة هي:

- شخصية المحاور
- شخصية الطرف الآخر للحوار

---

[119] سورة الأنبياء، الآيات: 51-68.

[120] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن ، ص35

[121] ينظر المرجع نفسه، ص36.

-الجو الهادئ المستقل

- فكرة أو موضوع الحوار

- أسلوب الحوار

وفي إطار التصور القرآني لهذه العناصر، نحاول إبرازها في شيء من التفصيل:

شخصية المحاور والطرف الآخر للحوار :

لا يمكننا تصور أي حوار يدور بين اثنين ينتهي إلى نتيجة دون أن يحقق شـــــرطا أساسيا هو حرية الحركة الفكرية التي يملك معها كل من الطرفين الثقة والأمن، فلا يكون واقعا تحت رحمة الإرهاب الفكري والنفسي الذي يشعر معه بالمهانة أمام الآخر فيتجمد عن ذلك ويفقد قدرته على الحركة الفكرية.[122]

فلا يستأثر المحاور بالكلام لنفسه، ويحرم الطرف الآخر من الكلام بالإطالة الـــتي تخرج به عن حدود الذوق واللياقة، فالاستئثار بالكلام كالاســـتئثار بالطعـــام منقصـــة بصاحبه، وعليه حسن الاستماع إلى الطرف الآخر، فالمتحدث البارع مستمع بارع فلا يقاطع. ومن وصية الحسن بن علي، رضي الله عنهما لابنه مؤدبا إياه:"يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلـــم حسن الكلام ولا تقطع على أحد حديثا ".

فالحوار ليس عملية وحيدة الجانب، بل هي عملية تقوم على"تنـــاصت وتســـامح متبادل" على إنصات كل طرف إلى الآخر، أو هو تفاعل بين طرفين، كل منهما يلعب دورين في نفس الوقت، دور المبادر والمتلقي.[123]

---

[122] ينظر: المرجع السابق، ص63.

[123] ينظر : الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص32.

ويتطور الحوار انطلاقا من ذلك في شكل تصاعدي متحرك نحو مزيد من التفاهم والإيجابية أو التأزم والسلبية، على حسب المؤثرات المختلفة المحيطة به. وهنـــاك لا بـــد من التوقف على هذه المؤثرات.

الجو الهادئ والمستقل :

ويتم ذلك عن طريق تجنب خلق الأجواء الانفعالية التي تربك ذهـــن الإنســان، وتقفز بالعاطفة إلى المقـــدمة وتجعلها تسيطر وتحدث كل أنـــواع الخلـــل المعروفـــة في الإدراك. وبقدر خلو جو الحوار من المواقف الانفعالية والشحنات العاطفية المتأججة بقدر ما يكون العقل أكثر هدوءا وقدرة على التركيز، وبدلك يمكن أن تتحـــرك العمليـــات الفكرية في الاتجاه الموضوعي الصحيح.

وهنا لابد من ملاحظتين أساسيتين:

الملاحظة الأولى:

إن الطرف الذي يحس بنفسه في موقف ضعف فكري عار من الحجة هو الـــذي يحاول عادة أن يغطي نقصه بحشد الأجواء الانفعالية وإثارة الجو بالعواطف، واســـتدعاء رتل من الاتهامات والمواقف والبراهين الخطابية تلغم الجو وتحـــاول أن تســـتفز الآخـــر أو تظهره في موقف ضعف.[124]

الملاحظة الثانية :

إن الجو الانفعالي لا يمنع فقط من التفكير والتأمل العميق، ولكن يـــؤدي أيضـــا إلى نوع من الإرهاب النفسي، مما يفقد الطرف الآخر الحركة الفكرية، ويجعله عاجزا عن الاقتناع أو عدمه، وقد ينساق أمام شخصية محاوره.[125]

---

[124] ينظر: د.سعد الدين العثماني، في فقه الحوار، المغرب- الدار البيضاء، منشورات الفرقان، ط2، 1996، ص30.

[125] المرجع نفسه، ص31.

ويمكن أن نلمح في القرآن الكريم محاولته في حوار الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الآخرين، إبعاد كل من يمكن أن يخلق ذلك الجو غير الصحي للتفكير السليم والاقتناع العميق وهما أساس المبادئ التي أتى يبشر بها. فنجد القرآن يهاجم انصياع الإنسان للأفكار السائدة في محيطه أو التي ورثها عن آبائه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.[126]

و هناك مسألة أخرى تدخل في سياق الجو الهادئ المستقل، هي الظرف المناسب، فينبغي للمحاور أن ينظر في الظروف المختلفة التي تحيط به قبل أي حوار والظروف المحيطة ثلاثة، ظروف المكان، وظروف الزمان وظروف الإنسان.

موضوع وفكرة الحوار:

القرآن الكريم يرسم طريق الدعوة إلى الله تعالى على أساس من العلم اليقيني، والحجة الدامغة والبصيرة النافذة، لأن الظن لا يفيد علما ولا يغني من الحق شيئا، والبصيرة التي أشار إليها القرآن الكريم هي التي تعصم الإنسان عن القول بغير علم وتوقفه عن محاجة غيره بدون دراسة للموضوع، وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[127]

فموضوع الحوار والعلم بتفاصيله والتسلح بالحجج والبراهين المؤيدة له سلاح فعال في يد المحاور الناجح، يمكنه من الوقوف على أرض ثابتة وليس على رمال متحركة، وخير ما يستعين به المحاور عند إرادته الخوض في موضوع معين أن يجمع أطراف الموضوع، ويتصور جميع احتمالاته ووجوهه، وأن يكون صاحب نظر ثاقب وخبرة عالية بظروف الزمان والمكان، وتطورات العلوم والمعارف وطبائع النفوس ونزواتها، وقبل ذلك وبعده

---

[126] سورة البقرة، الآية 170.

[127] سورة يوسف الآية 108.

ومعه لابد أن يكون المحاور صادقا مع نفسه ومع أفكاره حتى يكون من عداد الذين عناهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله:"لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء وتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن كان ذلك فهو في النار".[128]

الفكـــرة:

في أغلب المناقشات يحسن تناول الفكرة بالبحث والتحليل، أو بالنقد والنقض بعيدا عن صاحبها أو قائلها، وذلك حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية طابعها الطعن والتجريح، والعدول من مناقشة القضايا والأفكار إلى مناقشة التصرفات والأشخاص، وفي حالات قليلة يستحب الخروج عن هذه القاعدة، وذلك عندما تقضي مصلحة الحق - لا النوازع الشخصية - تعريف الطرف الآخر وفق الأدب الإسلامي على ضوء النصوص الواضحة كقوله تعالى:﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.[129]

وكقوله (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما:"ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش، ولا بذيء".[130]

أسلوب الحوار:

يركز الإسلام على الطريقة الإسلامية السليمة التي تعتمد اللين والمحبة أساسا للحوار من أجل الوصول إلى المعرفة من جهة وإلى الحق من جهة أخرى وأطلق على ذلك كله "التي هي أحسن" فهي الطابع الذي يطبع كل وسائل الحوار وأساليبه.

قال الله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.[131]

---

[128] رواه الترميذي و ابن ماجه.

[129] سورة الحجرات، الآية 11.

[130] أخرجه الترميذي وأحمد في المسند وابن حيان والبخاري.

[131] سورة فصّلت: الآية 33.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.[132]

ومن الواضح أن المقصود بالحسنة الأسلوب السلمي اللين ويوضح القرآن هنا النتائج العملية الإيجابية للرفق واللين في الدعوة، إنها تحول الأعداء إلى أصدقاء وأولياء، والتقريب بين القلوب والتأليف بينهما، وهو الهدف الأول من أهداف الحوار كذلك فإن هذه السمة مأمور بها كل حوار وجدال:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[133]

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[134]

وهذه السمة في آية أخرى تسد الطريق أمام نزعات الشيطان التي تحاول أن تفسد كل حوار وتقلبه إلى مراء، وجدال عقيم، كما تحاول الإيقاع بين القلوب بكل وسيلة.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.[135]

ومن الرفق إطابة الكلام الذي خصه الشّارع بالتأكيد، وجعله مناط النجاة والنجاح: "من يضمن لي مابين لحيته ومابين رجليه أضمن له الجنة ".[136]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.[137]

---

[132] سورة فصلت: الآية 34.

[133] سورة النحل الآية 125.

[134] سورة العنكبوت الآية 46.

[135] سورة الاسراء الآية 53.

[136] البخاري من سهل بن معاذ.

[137] سورة الأحزاب الآية 70-71.

فربطت الآية صلاح العمل بالقول السديد، فصلاح الحوار بالتالي مرتبط ارتباطا قويا بسداد القول وطيبه.

وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من دعوات الأنبياء وحوارا تهم مع أقوامهم، وكلها تودد وتحبب ولين ورفق في الخطاب والحوار. فأمر الله تعالى لموسى كان واضح الكلام:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.[138]

وحوار إبراهيم عليه السلام يتميز بقوله يا أبت في تودد وترحم وبتكرارها، قال صاحب الكشاف :"ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ليست معك..."[139] ولما رفض أبوه دعوته رد عليه ردا حليما حكيما مشوبا بالرقة والإحسان:﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[140].

والأمر بإطابة الكلام أو الكلام الطيب في السنة مستفيض أيضا. "والكلمة الطيبة صدقة" ولإطابة الكلام جملة سمات لابد منها، نذكر منها:

– **الإيجاز في الكلام:** لأن الإكثار من الكلام يؤدي في الغالب إلى مساوئ مثل إزعاج الآخر وإحراجه، وأحيانا يكون الإكثار في الكلام سببا في الإثارة العاطفية وتلغيم جو الحوار. وقد ذمت نصوص كثيرة الإكثار من الكلام وتشقيقه، واعتبرت بعض الأحاديث أنواعا من البيان والخطابة سحرا"إن من البيان لسحرا".[141]

---

[138] سورة طه، الآية 44.

[139] الزمخشري ، الكشاف ، لبنان– بيروت، دار الفكر للطبعة والنشر والتوزيع، ط1، 1373هـ 1977م، ج1، ص571.

[140] سورة مريم، الآية 47.

[141] رواه أحمد والترميذي.

وعن أبي ثعلبة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:"إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون والمتفيقهون".[142]

– **خفض الصوت** : ويعتبر رفع الصوت من أخطر أنواع الإرهاب النفسي في الحوار، ومن أكبر أسباب تلغيم جوه، لذلك ذمه الشرع، قال الله تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[143].

ويعتبر أبو إسحاق الشاطبي رفع الصوت من صفات الجدل المذموم، يقول: "رفع الصوت من خواص الجدل المذموم، أعني في أكثر الأمر دون الفلتات، لأن رفع الصوت والخروج عن الاعتدال فيه ناشئ عن الهوى في الشيء المتكلم فيه."

– **تجنب الكلمات الجارحة والألفاظ القاسية** : وهو ما يصطلح عليه في نصوص الشرع بالفحش في الكلام.فعن عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على النبي صل الله عليه وسلم فقال:»ائذنوا له فبئس أخو العشير، أو بئس أخو العشيرة فلما دخل أذن له القول، قالت عائشة: يا رسول الله قلت له الذي قلت فلما دخل ألنت له القول؟ قال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من ردعه الناس – أو تركه الناس – اتقاء فحشه".[144] وفي لفظ آخر:"يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش المتفحش".[145]

---

[142] البخاري ، في الأدب المفرد بإسناد صحيح (شرح السنة للبلغوي، بتحقيق شعيب الأرناؤوط) 364/12.

[143] سورة لقمان، الأية 19.

[144] البخاري، صحيح البخاري، ضبط وشرح دكتور مصطفى ديب، القاهرة، دار الهدى لطباعة والنشر والتوزيع، دط، ج1، ص175.

[145] المصدر نفسه، ج3، ص65.

3- قـواعـد الـحـوار:

حسن التخطيط: وهذا لن يأتي إلا بالجواب عن أسئلة هي:

أ- **لماذا** : بمعنى تحديد الهدف من الحوار الذي ينجح إلا إذا علمنا إلى أي وجهة نريد أن نتجه بها، وإلى أي نهاية نريد أن نصل. وهكذا فإن الهدف يجب أن يكون غامضا وعاما، والحوار الآتي لابد له من هدف أو أهداف إجرائية محددة. فتعيين أهداف متتالية تتلخص في تصحيح فكرة معينة أو الاقتناع برأي معين، وبدون ذلك يتحرك الحوار في كل الاتجاهات دون ضابط ويفشل بالتالي.[146]

ب- **ماذا**: أي ما هو مضمون حوارك مع الآخر؟ ما هي المادة التي تعدها وتعرضها للوصول إلى أهدافك؟ ما هي الحجج التي تدلي بها للاقتناع بفكرتك؟

ج - **من**: أي من هو الطرف المحاور؟ ما هي سماته؟ ما أفكاره؟ ما هي نظرته إليك؟ كيف تتعامل. وتتحاور؟ ليكون الهدف مثلا من أو ل لقاء للتعرف على الآخر والتقارب النفسي معه.

د - **كيف**: أي ما هي أفضل الطرق وأحسنها للنفاذ إلى عقل الطرف الآخر؟ ما هي اللغة والمنطق والأسلوب المقبول أكثر عند؟ ما هي القضايا الجوهرية والأولويات بالنسبة له؟ إن الجواب على هذه الأسئلة أساسي لاجتناب أي تعثر في الحوار.[147]

هـ - **متى**: فالحوار لا يمكن أن يجري في أي وقت وينجح بل لابد من إختبار الوقت المناسب الذي يكون فيه درجة الانفتاح والقبول لدى الطرف الآخر مرتفعة. أما إذا وجد توقيت غير مناسب فلا بد من انتظار الوقت المناسب.[148]

---

[146] ينظر: د. سعد الدين العثماني، في فقه الحوار، ص38.

[147] المرجع نفسه، ص39.

[148] نفسه، ص39.

الانطلاق من مواطن الاتفاق :

فالبحث عن مواطن الخلاف يعني أيضا تحديد مواطن الاتفاق واللقاء وأحسن طريقة للحوار هو الانطلاق من المتفق عليه لتوسيع والتضييق بالتالي من المختلف فيه، وإن إمضاء شوط كبير من الحوار في مزيد من التفاهم حول المتفق عليه أدعى لتجنب عثراته، وأدعى بالتالي لنجاحه، وقد سلك القرآن الكريم ذلك الأسلوب في حواره مع أهل الكتاب، فبعد أن أمر بعدم مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن أعطى نموذج ذلك فقال: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[149]

فدعا إلى الانطلاق معهم من الأرضية المشتركة المتوفرة.

تحديد مواطن الخلاف: فبعد الاستماع الجيد لابد من تحديد موطن الخلاف، وإن كان موجودا فأين؟ إذا لابد من تحديد مواطنه تحديدا دقيقا منطقيا ليدور الحوار حولها. وما يجب الحذر منه تصور وجود الخلاف حيث لا خلاف.

ذلك أن كثيرا من النقاشات والخلافات مصدرها أن الطرفين لا يتكلمان لغة واحدة، ولا يفهمان من الألفاظ معاني واحدة، أو أن حمولة الألفاظ لدى طرف ليست هي نفس حمولته لدى الطرف الآخر وبهذا يضحى الخلاف اللفظي سببا في عرقلة الحوار ومنع تقدمه.

---

[149] سورة العنكبوت، الآية 46.

الفصل الثاني

خصائص الأسلوب الحوارى

الأسلوب اللغوي، معناه، أنواعه، وظيفته :

معنى الأسلوب اللغوي: تشير معاجم اللغة إلى أن مفهوم الأسلوب هو الطريقة، يقال: سلكت أسلوب فلان أي طريقته، ويقال كذلك: كلامه على أساليب حسنة.[1]

كما يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الطريق تأخذ فيه، والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول: أفانين منه.[2]

رأي عبد القاهر الجرجاني:

الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني يشمل جانبين: طريقة التفكير، ثم طريقة الأداء اللفظي الذي يتجلى في أنماط التعبير.. [3] قال: واعلم أن الإقتداء عند الشعراء، وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه، أن يبتدئ الشاعر في معنى وغرض أسلوبا، والأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به في شعره ".

ويتسع معنى الأسلوب عنده فينتظم من حيث التقعيد له، وضع أصوله نظريات علم المعني وما قرره فيها من توجيهات بلاغية لها بالأسلوب أوثق صلة.

و لا يهمل عبد القاهر توجيهات "علم النحو" و"علم الصرف"، بل جعل النظم – الذي يرادف الأسلوب عنده – هو توخي معاني النحو بين الكلم، وهو بهذا يضفي على النحو مفهوما أو سع من عرف النحاة أنفسهم.

فحكم اللفظ النحوي تابع لمعرفة معناه ووظيفته في الأسلوب، وتوخي النحو بين الكلمات هو معرفة مواضعها من الصياغة الأسلوبية قال:"إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى الترتيب في الألفاظ – من حيث هي

---

[1] أحمد الشايب، الأسلوب، مصر – القاهرة، مكتبة النهضة، ط6، 1996, ص41.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص173.

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، مكتبة القاهرة، ط1، 1969م، ص 338-339.

ألفاظ – ترتيبا ونظما دون أن تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذاك اتبعتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها.. وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".[4]

و الخلاصة أن عبد القاهر في هذا النص يربط محكما بين مظهري الأسلوب الآنفي الذكر: طريقة التفكير، ثم الأداء اللفظي، فالأسلوب عنده مجموع الأمرين. وتوخي معاني النحو هو الذي يجعل الأسلوب يبدو بهذه الصورة المتألقة.

و أنقل ما كتبه الأستاذ محمد عباس في هذا الجانب من كتابه: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني إذ يقول:"ومهما يكن من خلاف أو اتفاق حول الموضوع، فإن الأسلوب هو الصورة الحية في شخصية الأديب في تفكيره وشعوره و تعبيره، فهو يرسم ملامح روح العمل الفني، ومن هذا المنظور كان لكل أديب أسلوبه الخاص وطابعه في كل ما مست يده من عمل أدبي وفني".[5]

ويعلق الدكتور محمد عباس على حد الأسلوب عند ابن خلدون قائلا وربما كانت مساهمة ابن خلدون في تحديد ماهية الأسلوب أعمق بكثير من رؤية الأستاذ الشايب في شموليتها التي تؤمن إلى دلالة الأسلوبية في الدراسات الحديثة، إذ أن ابن خلدون ينظر إلى الأسلوب على أنه عملية مركبة في علوم النحو والبلاغة والأدب، من معان مجردة وصوّرا ذهنية ".[6]

ويورد الأستاذ محمد عباس قول ابن خلدون.

رأي ابن خلدون:

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص 43.

[5] محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني ،دمشق، ط1، 1420هـ 1999م، ص 41.

[6] المرجع نفسه، ص39.

الأسلوب عند ابن خلدون لا يرجع إلى إفادة التراكيب أصل المعنى (النحـــو) ولا على (البيان)، ولا موافقته للوزن (العروض) فذلك كله خارج عن صناعـــة الأســلوب -شعرا ونثرا- وإنما الأسلوب عنده هو : الأداء اللفظي المطابق للصورة الذهنية لمفهـــوم الأسلوب الناجم عن قوة الملكة في اللسان العربي الذي هو ثمرة الاعتماد الطبع والتمرس بالكلام البليغ.[7]

ويسوق ابن خلدون نصا [8] مطولا عن الأسلوب يخرج منه الباحث بالنتائج الآتية:

أ- لا يدخل النحو والبلاغة والعروض في مفهوم الأسلوب

ب- يرجع الأسلوب إلى الصور الذهنيـــة للـــتراكيب المنظمـــة كليـــة باعتبـــار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب، ويصيرها كالقالب أو المنوال ثم ينتقي لها التراكيب الصحيحة عند العرب بإعتبار الإعراب والبيان.

ج - لكل فن من فنون الكلام أسلوب خاص يميزه عما سواه من الفنون فأسلوب الشعر غير أسلوب النثر... وهكذا.

د - إن الأساليب ليست من القياس في شيء، بل هي هيئة ترسخ في النفس مـــن تتبع التراكيب العربية شعرا ونثرا، لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل. ويلاحظ أن ابن خلدون عندما يتحدث عن الأســـلوب إنمـــا كـــان يضـــع نصب عينيه الأسلوب في الصناعة الشعرية. ولكنه عاد فعمم تلك القواعد الـــتي يراهـــا هو للأسلوب على المنظوم والمنثور إذ يقول:"وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور ".[9]

---

[7] عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، القاهرة - مصر، مكتبة وهبـــة ،ط1، 1413هـــ-1993م، ج1، ص43.

[8] ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ-1992م، ص571.

[9] المرجع نفسه، ص571.

هذه خلاصة مفهوم الأسلوب عند أديب ناقد، هو عبد القاهر الجرجاني وعالم مؤرخ هو عبد الرحمان ابن خلدون، وإننا حين نقارن بين ما قرراه، لا نجد خلاف كبير بل هما يترحان من دلو واحدة، وإن اختلفا في طريق الورود.

فقد رأينا الشيخ عبد القاهر يجعل الأسلوب منتزعا من توخي معاني النحو بين الكلم، وفي نفس الوقت ينكر ابن خلدون هذا الفهم ويجعله خارجا عن مفهوم الأسلوب.

ويخص ابن خلدون الأسلوب بالصورة الذهنية المنتزعة من التراكيب الصحيحة وقد رأينا عبد القاهر لا يغفل قضية هذه الصور الذهنية. بل يجعلها الأساس الذي يضع التراكيب حين تؤدى أداء لفظيا بحيث يكون الأداء اللفظي تابعا لترتيب المعاني في التنفس.[10]

وقديما نحا أرسطو منحى عبد القاهر، إذ يرى أن الأسلوب هو "طريقة الصياغة" أو الأداء اللفظي الذي يتخذه الأديب أداة للتصوير والإبانة عن مشاعره وأحاسيسه ونقل تلك المشاعر والأحاسيس إلى الآخرين.

النظم والأسلوب :

أما عن علاقة النظم بالأسلوب، أو المنظور الأسلوبي للنظم في منهج عبد القاهر الجرجاني، فإن أحسن من تحدث عن ذلك هو الأستاذ الدكتور محمد عباس في كتابه "الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني" وهو دراسة تسعى إلى استكشاف إضافات وتصورات علمية جديدة في جهود عبد القاهر الجرجاني من خلال مقارنتها العلمية في منهج الدراسة بين التنظير العربي والتنظير الغربي.

---

[10] عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج1، ص45.

ومهما أوتيت من بيان ودقة التعبير، فلا أحسب أني سآتي بمثل ما جاء به في هذا الجانب من غير اقتباس للفظه أو لمعناه وأنقل قوله:"والمتتبع لمنهج عبد القاهر الجرجاني يجده يميز بين النظم والأسلوب، فالنظم في نظره مفهوم أعمق من الأسلوب، فقد أعتني به عناية خاصة، وبالغ في تكراره والتركيز عليه مؤلفاته التي خصصها للبحث فيه، لارتباطه بالبنية اللغوية وتراكيبها الخاضعة لتوخي معاني النحو، وهو محور الدراسة في نظريته في كل جهوده كما مر الحديث من قبل، بينما يعرف الأسلوب بأنه وسيلة في الإقتداء، وطريقة في الكتابة تختلف من كاتب إلى كاتب أو من شاعر إلى شاعر آخر. وقد حدد عبد القاهر الأسلوب في النمط الشكلي من التعبير حين وضح السمات العامة في أشكال القول وطرق التعبير كالتي يتقنها الشعراء ".[11]

ويقول في فقرة أخرى حول الموضوع:"ولا يفهم من نظرية النظم أنها الأسلوب وحده".[12]

كما ذهب إلى هذا الرأي الأستاذ أحمد الشايب حين قرر أن النظم يقابل الأسلوب، وآثر في استعماله مصطلح الأسلوب على مصطلح النظم.

هذا عن الأسلوب عموما.

وتختلف أساليب المتكلمين بعضهم عن بعض بل تختلف عند الشخص الواحد، وكم رأينا من رجل تكون له حاجة عند آخر فيقف يصف عبارته ويختار ألفاظها، ويضيف إليها، ويحذف منها، حتى توافق قبولا عنده.

---

[11] محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص38.

[12] المرجع نفسه، ص38.

جودة السبك وإحكام السرد:

وبيان ذلك كما يقول الزرقاني رحمه الله تعالى:"أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى أخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزاءه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساويا لأوله، وبدا أو له مواتيا لآخره".[13]

وهذا الإمام السيوطي ينقل عن ولي الدين الأموي قوله:"قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع ترتيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياتها بالتوفيق، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أو ل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك على جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ".[14]

ولا تحسبن أن جودة السبك، وإحكام السرد، ليس أمرا بذي بال، ذلكم أن الكلام هو مرآة المعاني، فإذا اتسق واتحد وترابطت أجزاؤه وتلاحمت أفراده، وإحكام سرده: صفت معانيه وانجلت، وإذا لم يكن الكلام كذلك فإن المعنى حتما سيتبدد وستغرق أجزاءه كما تتبدد الصورة على المرآة المشروحة.

---

[13] الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة –مصر، دار المعارف، دط، 1963م، ص53.

[14] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1411هـ–1991م، ج2، ص108.

إذا فجودة السبك وإحكام السرد ضرورة لصفاء المعاني، فإذا علمت ذلك فاعلم أيضا أن تحقيقه عويص سلمه وصعب المرتقي بل الأمر يحتاج فيه إلى كلمة راسخة وحذق مكين في علم الكلام.

فعلى من رام ذلك أن يختار الموقع المناسب لكل عبارة من كلامه أيها يجعل قاعدة، وأيها يجعل تتمة وأيها يكون مطلعا، وأيها يختم بها كلامه، فإذا قر قـــراره في ترتيبهـــا كان عليه أن يحسن ربطها ويحكم سردها ويمزج بينها بل عليه أن يختار أحسن أســـاليب المزج، وحسنها ليس واحدا في كل مقام فقد يكون الإسناد مرة أفضل، وقـــد يكـــون التعليق أخرى، وقد يكون العطف ثالثة، وقد تكون الإضافة رابعة، ثم عليـــه أن ينقـــي بعد ذلك عباراته من الحشو ومن نبوة لفظه أو جسأة حرف قد تخدش رهافـــة حســـن المتذوق، فإن أتقن ذلك وأداه حق أداءه، انتقل إلى المعنى الثاني وفعل بـــه كمـــا فعـــل بالمعنى الأول وزاد على ذلك إتقان ربطه بالمعنى السابق وبالمعنى اللاحق.[15]

ورصف المعاني كرصف المباني يضعها البناء لبنة لبنة، ويضع بين اللبنات ما يربط بعضها ببعض ثم يعود عليها كلها بما يغطي آحادها ويظهرهـــا كالســـبيكة الواحـــدة، ثم يكرر أخرى يزيل ما خرج عن سمتها أو نبا عن حدها، وعلى قدر إتقانـــه تكـــون مهارته.[16]

فإذا أدركت ذلك فانظر في كلام البشر، فستجد أكـــثرهم لا يتقنـــون تنظيـــم أغراضهم وأجزاء كلامهم بل يسوقونها أشتاتا مفككة، وكثيرا ما عاب النقـــاد فحـــول الشعراء بسوء التخلص حين ينتقلون من معنى إلىآخر في القصيدة الواحدة، وقد يضطر خاطبوا البلاغة للربط بين غرض وغرض إلى استخدام أسماء الإشارة أو أدوات التنبيه أو كثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنـــاوين وعبـــارات (أمـــا بعـــد)، و(وإن قلنـــا)،

---

[15] ينظر: عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم، الرياض – السعودية،مكتبة العبيكان- ط9، 1417هـــــ – 1997م، ص39.

[16] ينظر: المرجع نفسه، ص40.

ونقول(كذا)، أو الإشارة في مقدمة الأبحاث إلى تقسيمه إلى أبواب وفصول كاعتذار مسبق للانتقال الفجائي من معنى إلى معنى.[17]

أما الحوار في القرآن فانظر في سبكه، وتأمل في سرده، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[18] فهو ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.[19]

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[20].

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[21].

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[22].

حسن التخلص :

التخلص – لغة – هو الإنفكاك من الشيء أو الخروج منه، والتخلص في الشعر هو الانتقال من غرض إلى آخر، وقال ابن طباطبا إنه:"مما أبدعه المحدثون دون من تقدمهم.[23] وذكر الحاتمي من شروط التخلص أن يقع الاتصال ويؤمن الانفصال.[24] أما القزويني اشترط لحسن التخلص ما سماه "تلاؤم الطرفين".[25]

---

[17] ينظر المرجع السابق، ص40.

[18] سورة الملك، الآيتين 3 – 4 .

[19] سورة الزمر: الآية: 28.

[20] سورة النساء الآية: 82.

[21] سورة هود الآية: 01.

[22] سورة الفرقان، الآية: 06.

[23] ابن طباطبا، عيار الشعر، القاهرة– مصر، شركة فن الطباعة، دط 1956م، ج2، ص357.

[24] أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1989م، ص274.

[25] المرجع نفسه، ص275.

وكان القدامى يتهمون "البحتري" بالتقصير في الخروج من النسيب إلى المديح

أجدك هل تدرين أن رب ليلة

أن دجاها من قرونك ينشر

نصبت لها حتى تجلت بغره

كغرة يحي حين يذكر جعفر

وقد أشارت طائفة من القدامى والمحدثين إلى (التخلص) بوصفة سمة أسلوبية في النص القرآني، ولعل الباحثين في "علوم القرآن" قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة.

ومن الواضح أن النص القرآني قد سبق إلى استخدام قانون (التخلص) في نظم آياته، وأن المحدثين تبعوه في ذلك، فلم يكن الأوائل، فيما يقول ابن طباطبا يعرفون هذا المذهب أو يلجئون إليه في تأليف أشعارهم ونثرهم.

حسن التخلص في الحوار القرآني :

مما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[26].

قال ضياء الدين معلقا على هذا النص الحكيم:"فانظر أيها المتأمل في هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه بركاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني.

فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى أنه أفرغ في قالب واحد فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، إلى ذكر الله تعالى. فوصفه بصفات الإلهية فعظم شأنه، وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له، ثم خرج من ذلك إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة في أثناء الكلام".[27]

وهذا أحد مواضع ذكرها ابن الأثير للتدليل على ما للقرآن من قوة الربط والانتقال من معنى إلى آخر انتقالا مناسبا لا اقتضاب فيه. وما أرانا في حاجة إلى ذكر بقية الأمثلة التي يشير إليها بقوله :"وفي القرآن مواضع كثيرة من التخلصات"[28]

وقال الزركشي[29] :". .. وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن على النوع المسمى بالتخلص، وقد أنكره أبو العلاء محمد بن المعروف بالغانمي، وقال : ليس في القرآن منه شيء لما فيه

---

[26] سورة الشعراء، الآيات 69 و102.

[27] ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محي الدسن عبد الحميد، مصر، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1939م، ج2، ص 128-130.

[28] المرجع نفسه، ج2، ص 130.

من التكلف وليس كما قال : ومن أحسن أمثلته قوله تعالى:﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[30] فإن فيه خمس تخلصات. وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى ذكر الزيت، ثم من ذكر الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعمة الله بالهدى على من يشاء.

ثم قال: ومنه قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[31] فإن سبحانه ذكر أو لا عذاب الكفار وأن لا دافع لهم من الله. ثم تخلص إلى قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[32].

ومنه قوله تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾[33]إلى قوله:﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[34] .

فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هذا، وتمنى الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، وهذا تخلص عجيب، ثم أخذ يسوق أمثلة كثيرة موضحا ما فيها من اختلاف الأغراض وحسن الربط بينها شأنه شأن ابن الأثير، بيد أن ابن الأثير أطول منه باعا، وأوسع تحليلا فيما عرض له.[35]

---

[29] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الباقي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى 1907، دار الحياء الكتب العربية، ج1، ص43.

[30] سورة النور، الآية 35.

[31] سورة المعارج، الآية 01.

[32] سورة المعارج، الآية 04.

[33] سورة الشعراء، الآية 69-70.

[34] سورة الشعراء، الآية 102.

[35] ينظر: د. عبد العظيم المطنعي، خصائص التعبير القرآني، ج2، ص317.

التصوير والتشخيص :

إن الرسم بالكلمات والحروف فن لا يجيده كثير من الناس، لا نريد بذلك رسمها المحسوس على الورق ولكننا نريد إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس حتى تهم بلمسها بيدك، وحتى تلج إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلفه مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتفسره قسرا على الفهم والإدراك، بل بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها.[36]

هذا ما نقصد بتصوير الألفاظ للمعاني في القرآن الكريم أو ما يعرف بـ (التصوير الفني في القرآن الكريم)، وهو علم ارتبط في الأذهان حقا بسيد قطب -رحمه الله- فهو أو ل من أتقن الكتابة فيه ورسم حدوده ومعالمه، وأبرز حقيقته إن لم تكن غير ظاهرة عند من سبقه، فهي بلا شك باهتة لا تكاد تبين تكلم الحقيقة هي أن:"التصوير هو الأداة المفضلة في القرآن"[37]

ويوضحها رحمه الله تعالى بقوله:"لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي إتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية، والحالات النفسية، وإبرازها في صورة حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية، مشاهدة القيامة، وصور النعيم والعذاب، والنماذج الإنسانية... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة"[38] .

ثم قارن رحمه الله بين هذه الطريقة في نقل المعاني والطريقة الأخرى التي تنقل المعاني، مجردة من التصوير، فقال:"فما فضل هذه الطريقة على الطريقة الأخرى التي تنقل المعاني والحالات النفسية في صورتها الذهنية التجريدية، وتنقل الحوادث والقصص أخبارا مروية، وتعبر عن المشاهد والمناظر تعبيرا لفظيا لا تصويرا تخيليا؟

---

[36] ينظر: المرجع السابق، ج2، ص253.

[37] سيّد قطب ، التصوير الفني في القرآن، بيروت ، لبنان ، دار الشروق ، ط47، 1990،ص32.

[38] المرجع نفسه، ص32.

يكفي لبيان هذا الفضل أن نتصور هذه المعاني كلهـــا في صورتهـــا التجريديـــة، وأن نتصورها بعد ذلك في الهيئة الأخرى التشخيصية.

إن المعاني لبيان في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجـــــردة من ضلالها الجميلة، وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان، وتصـــــل إلى النفـــس من منافذ شتى :"من الحواس بالتخييل ومن الحس عن طريق الحواس، ومـــن الوجـــدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد"[39] .

وينبغي أن نقول إن القرآن الكريم لا يكتفي بالتعبير عن المعنى بصورة محسوسة ثم يقف عند ذلك بل يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشـــــاخصة أو الحركـــة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحـــــة أو مشـــهد، أو نموذج إنساني حي، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمنـــــاظر، فيردهـــا شـــاخصة حاضرة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل.[40]

فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين إلى نظارة وينقلهم نقـــلا إلى مســـرح الحوادث الأول، والذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجـــدد الحركـــات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، أو مثل يضرب، ويتخيل أنه أمام أحداث يراها حين وقوعها، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو وهـــــذه سمـــات الانفعـــال بشـــتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الأحداث، وهذه كلمـــات تتحـــرك بهـــا الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة هنا. . وليست حكاية الحياة.

---

[39] المرجع السابق، ص 194.

[40] د. عبد العظيم المطنعي، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج2، ص252.

فإذا ما ذكرنا – وكدنا ننسى – أن الأداة التي تصور هذه المعـــاني، وتشـــخيص هذه الأحداث إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن ".[41]

والأمثلة على هذا النوع كثيرة جدا، لا نريد تعدادا ولا استقصاء، فالمقام ليس مقام التعداد ولا الاستقصاء، والمقام هنا مقام تمثيل ومن أمثلة سيد رحمه نقتبس مثـــلا مـــن سورة البقرة، فمن ذلك ما ضربه الله مثلا للمنافقين في قوله سبحانه:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[42].

قال رحمه الله تعالى:"إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هو ل ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء... إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيّب الهاطل.. إلى الظلمات والرعـــد والـــبرق، إلى الحـــائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يجثم الظلام، إن هذه الحركـــة في المشهد لترسم –عن طريق التأثر الإيجـــابي– حركـــة التيـــه والاضطـــراب والقلـــق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون... بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكسون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هـــدى ونـــور، ومـــا يفيئون إليه من ضلال وظلام، فهو مشهد حي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجســـيم أحـــوال النفـــوس كأنهـــا مشـــهد محسوس"[43].

---

[41] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 23-33.

[42] سورة البقرة، الآيتين: 19-20.

[43] سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة- مصر، دار الشروق، ط15، 1408هـ-1988م، ج2، ص 260.

وقد يكون التصوير بتجسيم المعاني ونقصد به جعلها في صورة مجسمة، فيصف العذاب بأنه غليظ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[44].

ولا يلزم أن يكون التصوير في جملة من الآيات أو في آية كاملة بل قد يكون التصوير في كلمة واحدة، خذ مثلا كلمة كبكبوا من قوله تعالى:﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[45].

"كبكبوا... وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه"[46]

تلكم سمة بارزة في أسلوب الحوار في القرآن الكريم يفعم الكلمة بالحركة، والجملة بالمشاهد والصور المتحركة، حتى لتحسب نفسك في معمعة الحدث فتنفعل مع المشهد قدر حضور ذهنك وقدر تأملك وتدبرك، ومن ثم يكون التأثر بالنص القرآني، فتلين له القلوب وتقشعر له الجلود، وتفيض منه الدموع.

خصائص الأسلوب:

النظم والوقع :

النظم: والنظم في اللغة: التأليف [47]

قال في المعجم الوسيط: ويقال: نظم القرآن: عبارته تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة.. والنظيم: المنظوم ومن كل شيء: ما تناسقت أجزاءه على نسق واحد [48]

---

[44] سورة إبراهيم، الآية 17.

[45] سورة الشعراء، الآية 94.

[46] المرجع نفسه، ج5، ص 260.

[47] ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 558.

[48] مجمع اللغة العربية بمصر، المجمع البسيط، القاهرة، مصر، المكتبة السلفية، 1910م، ج2، ص

والحديث عن فكرة النظم القرآني حديث لا يستوعب هذا المقام، وقد تتابع في الحديث عنها طائفة من العلماء يشيرون إليها تارة ويفردونها بمؤلفات تارة أخرى.

ولعل هذه الفكرة هي أبرز ما قدمه العلماء السابقون من دراسات حول إعجاز القرآن وقد فتح أبو عبيد القاسم بن سلام بكتابة مجاز القرآن إلى بيان الإعجاز القرآني عن طريق نظمه وتأليفه، وإن كان هو نفسه لم يعرض لبيان أسرار الإعجاز[49]

ولكن الجاحظ هو الذي أداه إحساسه العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية إلى أن يصيح في معاصريه، إن إعجاز القرآن في نظمه، وألف في ذلك كتابا سماه (نظم القرآن)، ولعله أو ل من استعمل هذه اللفظة سواء تردد مفهومها في ذهن من قبله، أم لا.

وفكرة النظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعتمد على حسن الصياغة، وكمال التركيب، ودقة تأليف اللفظ، وجمال النظم، ولا عجب أن يغلب جانب اللفظ عند الجاحظ على المعنى فهو ينكر على صاحبه استحسان المعنى فيقول:"وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى والمعاني المطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك"[50]

ثم نجد فكرة النظم عند ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بلاغية، ويظهر من إلحاحه في بسط مذاهب البلاغة المختلفة دون أن يقف أمام التركيب وضم الكلام بعضه إلى بعض على ما يقتضيه علم النحو[51]

---

[49] د. فتحي عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1395هـ، ص 53.

[50] الجاحظ، الحيوان، تحقيق فوزي عطوى، الشبكة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1، 1387هـ-1968م، ص131-132.

[51] د. فتحي عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ص 63.

أما الرماني (ت 296) فإن أعلى مراتب البيان عنده ما اكتملت فيه البلاغة من جمال التعبير وروعة الأداء من تعديل النظم حتى يتحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس، فهو يقف عند المعنى، والعبارة، والصورة، ويستنبط النكتة من الآية في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) في إطار البيان البلاغي، فالبلاغة عنده وجه من وجوه الإعجاز.

وقد رسم عبد الجبار الحمداني معالم فكرة النظم القرآني في كتابه (المعنى في أبواب التوحيد والعدل) حين نص على أن أفراد الكلام لا تظهر فيها الفصاحة، وإنما تظهر الفصاحة في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، قال:"وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالإعراب.. وقد تكون بالموقع.. ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ".[52]

خلاصة الأمر أن عبد الجبار فسر فكرة النظم تفسيرا أدق من سابقيه فنفى أن يكون مرجع الفصاحة التي يفسر بها الإعجاز القرآني والتي يتفاضل بها البلغاء إلى اللفظ أو المعنى أو إلى الصور البيانية، وإنما مرجعها إلى الأسلوب والأداء والصياغة النحوية للتعبير.[53]

لكن الذي أعطى فكرة النظم صورتها الواضحة، وميزها تماما مما قد يعلق بها، أو تعلق هي به هو عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز).

فالمفردات عنده سواء لا فضل لإحداها على الأخرى ما دامت منفردة إلا بأحد الأمرين أو لهما: أن تكون واحدة منها مستعملة، والثانية غريبة وحشية.

---

[52] عبد الجبار الحمداني، المعنى في أبواب التوحيد والعدل، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق مجموعة من الباحثين، 1966م، ج16، ص199.

[53] د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، مصر، دار المعارف، ط1، 1965، ص 161.

وثانيها:"أن تكون واحدة منهما أكثر خفة على اللسان من الأخرى، وفيها عـــدا ذلك في تمايز بينهما إلى أن تأخذ مكانها من النظم، ومن ثم تتفاضل في مكان دون مكان أو في تعبير دون آخر، ويقول:"اعلم أنك إذا رجعـــت إلى نفســـك علمـــت علمـــا لا يعترضه الشك، أنّ لا نظم في الكلام ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض وبين بعضهـــا على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد مـــن الناس"[54]

فالنظم عند الجرجاني وثيق الارتباط بالنحو، وليس المقصود بارتباط النظم بـــالنحو أن يخضع لتلك القواعد الجافة الشكلية من الرفع والنصب والجر والجزم وتقديم الفعـــل على المفعول وتأخيره عنه ، ولكنه يقصد البلاغي أو البلاغة النحوية، وبذلـــك يكـــون أخضع النحو لفكرة النظم، وأخضع فكرة النظم إليه، وأصبح النظم الذي يرتبط بـــالنحو مباحث الأسرار البلاغية التي تصل إلى أرفع مراقي البيان وذلك هو الإعجـــاز الـــذي أذاب فيه الرجل كتابه (دلائل الإعجاز) بالشرح والتمثيل.[55]

و مما لا شك فيه أن عبد القاهر، فتح باب البلاغة النحوية وتذوقها على مصراعيه، وظل صاحب مدرسة متميزة في تحديد معالم فكرة (النظم القرآني)، وهذه الفكرة بـــلا شك من خصائص أسلوب الحوار في القرآن الكريم لا توجد في كتاب سواه.

الباقلاني و أسلوب القرآن :

ذكر الباقلاني خصائص الأسلوب القرآني على الوجه الآتي :

أولا: خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظومهم: وفي ذلك يقول:"إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله، ولا يعجـــز

---

[54] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 12.

[55] أ. د. فهد بن عبد الرحمن الروحي، خصائص القرآن الكريم، ص24.

أهل الصناعة، ولا المتقدمين فيها عنه مع التحدي والتقريع بالعجز القصور، لأن العادة جارية بجمع الدواعي والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم في الصناعة، وما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج عن حد ما يكسب بالحذق"[56]

ويقول:"إن عجز القوم عن معارضته دليل خروجه عن نمط كلامهم "

ثانيا: إنفراده بالحسن رغم طوله: وفي ذلك يقول:"إنه ليس للعربي كلام مشتمل على هذه الفصاحة الغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة الحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما يغينه بعد من الاختلال."[57]

ثالثا: بديع تأليف: وفي ذلك يقول:"إنه عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص، ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوضاف تعليم وأخلاق كريمة وشيمة رفيعة....

ونجد كلام الناس البلغاء الكاملين، والشاعر المغلق، والخطيب المصقع يختلف حسب اختلاف هذه الأمور.[58]""

رابعا: حسن الربط: وفي ذلك يقول:"إن كلام الفصحاء يتفوت تفاوتا بينا في الفصل والصول، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظام، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف إليه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف،

---

[56] البقلاني، إعجاز القرآني، ت. أحمد صقر، مصر، دار المعارف، ط3، ص 39.

[57] المرجع نفسه، ص 56.

[58] المرجع نفسه، ص 59.

والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الأحاء- وهذا أمر عجيب، تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج به عن حد العادة.

خامسا: بلاغته: وفي ذلك يقول:" إن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة، خرج به عن حد العادة في كلام الإنس والجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا.[59]"

سادسا: اشتماله على طرق تعبيرهم مع تفوقه: وفي ذلك يقول:"إن الذي ينقسم إليه الخطاب من البسط والاختصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد في الفصاحة والبلاغة والإبداع.[60]"

سابعا: خلابة عباراته دائما: وفي ذلك يقول:"إن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة، والأحكام، والاحتجاج في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها لبعض في اللطف البراعة مما يتعذر على البشر.[61]"

ثامنا: تألف التعبير القرآني إذا قرن بتعبير آخر: وفي ذلك يقول:"إن الكلام بين فضله، ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة، في تضاعيف الكلام، أو تقذف بين شعر فتأخذه الأسماع، وتتشرف إليه النفوس، ويرى وجه رونقه باديا عامرا سائر ما يقرن كالدرة التي ترى في سلك الخرز، وكالياقوتة في واسطة العقد.[62]"

تاسعا: فواتح سوره: وفي ذلك يقول:"إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرف، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهي

---

[59] المرجع السابق، ص60

[60] نفسه ، ص60

[61] نفسه، ص 62.

[62] نفسه، ص 62.

أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينتظم بها كلامهم.[63]"

عاشرا: سهولته وامتناعه: وفي ذلك يقول:"إنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصفة المتكلفة، وجعله قريبا إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه العبارة إلى النفس، وهو مع ذلك تمتنع الطلب عزيز المنال.[64]"

هذه صورة موجزة للوجوه التي لغت عشرا عند الباقلاني اختص أسلوب القرآن بها عما سواه وبها -عنده- وقع الإعجاز.

ويمتاز منهج الباقلاني في أنه يتخذ من وحدة العمل النظمي أساس لدراسته فهو لم يعتبر الآية المفردة -بل الجملة- موضعا للإعجاز، أو ظهور الروعة البيانية فيها، فإعجاز القرآن عنده يبدأ بالسورة المتكاملة، لأنها وحدة كملت لها عناصر وحدة الفكرة والشكل، وينتهي بالقرآن كله من حيث نفى الإعجاز عن الآية الواحدة وما دونها ويبدو عنده الإعجاز أكثر وضوحا وتألقا، ولاشك أن خصائص العمل الفني تكون أظهر وضوحا في الوحدة الكاملة: القصيدة في الشهر، والقصة في النثر، والسورة في القرآن.

و من هنا اكتسب منهج البقلاني عمقا وأصالة غذ هو يقوم بدون الوسيط بين النص قارئه.

و لهذا فأنه عمد إلى سورة كاملة هي سورة النمل، وحللها تحليلا جميلا رائعا ليكشف مواطن الجمال فيها.

---

[63] المصدر نفسه، ص 65.

[64] المصدر نفسه، ص 69.

البلاغة والأسلوب :

اهتمت البلاغة العربية بتوجيه الأسلوب ابتداءا من الحرف، فالكلمة، فالجملة، فالأسلوب كله، و لم تقصر فهذا الشأن، وفصلت الكلام على أقدار المخاطبين، فكان اختلاف المقامات الذي يتبعه اختلاف في الكلام نفسه من إيجاز وإطناب ومساواة إلى آخر هذه الاعتبارات.

ومن توكيد مختلف الدرجة، إلى خلو من التوكيد، من ذكر إلى حذف، من تقديم إلى تأخير، من إظهار إلى إضمار، من وصل إلى فصل، و لم تحجر على المتكلم بقوالب جامدة فأعطته الحرية في حسن تقديره للاعتبارات المناسبة، وجعلت من حقه أن يخالف الظاهر له من أحوال المخاطبين ويسلك بهم طريقا غير الظاهر، ما دام قد راء اعتبارا آخر مناسبا يحسن أن يورد عليه الكلام، فكان علم المعاني كفيلا بهذه التوجيهات ووضعت صور الخيال والمبالغة في إيراد المعاني ميسرة أمام المتحدث فيستعير، ويتجوز، ويكنى ويمثل، والبليغ الذي يوفق لأن يضع أسلوبه على هدى من توجيهات البلاغة والفصاحة، وكان علم البيان خير معين في هذا المجال.

وخلاصة، فإن البلاغة تشريع وتوجيه لصياغة الأسلوب الجميل ولها دورها الهام في الإعجاز القرآني.

خصائص أسلوب القرآن عند الزرقاني :

يذكر الزرقاني خصائص أسلوب القرآن على وجه التمثيل والتقريب أيضا أو كما يقول: ما لا يدرك كله لا يترك أقله.

1- مسحة القرآن اللفظية: فإنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

ونريد بنظام القرآن الصوتي، إنتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا، وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي الكلام آخر من منظوم ومنثور."[65]...

2-إرضاؤه العامة والخاصة: ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا انهم بيد يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراف ديباجته ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر.[66]"....

3- إرضاؤه العقل والعاطفة: "ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا، أنظر إليه مثلا وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويتمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[67]. تأمل في هذا الأسلوب البارع، الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في أن واحد.[68]

4- جودة سبك القرآن وإحكام سرده: ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره، مبلغا لا يدانيه فيه لا يدانيه فيه أي كلام أخر، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد، وآية ذلك

---

[65] الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، لبنان - بيروت، دار المعرفة، ط2، 1422هـ-2001م، ص 191،

[66] المرجع نفسه، ج2، ص 194.

[67] سورة فصلت، الآية، 39.

[68] المرجع نفسه، ج2، ص 195.

أنك إذا تأملت في القرآن الكريم، وجدت منه جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة.[69]"...

5-براعته في تصريف القول وثورته في أفانين الكلام: ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء.

6- جمعه بين الأجمال والبيان: مع أنهما غايتانا متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس بل كلامهم إما مجمل وإما مبين، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي أخرقت له العادة، فتسمح الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد، أما أنها بينة أو مبنية فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة.

7- قصده في اللفظ مع وفائه بالمعنى: ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن تجد بيانا قاصدا على حجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظ البريء، من الإسراف والتقتير، تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة.[70]"...

أراء محمد عبد العظيم الزرقاني :

تحدث الزرقاني في الجزء الثاني من كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن عن إعجاز القرآن وذكر لذلك أربعة عشر وجها أولها لغته وأسلوبه وهذا ما فصلناه في المبحث السابق، ويقول المؤلف:"وبيان ذلك أن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب، الذي اشتمل على ذلك الخصائص العليا التي تحدثنا عنها والتي لم تجتمع بل لم توجد

[69] المرجع السابق، ج2، ص 197.

[70] نفسه، ج2، ص 205.

خاصة واحدة منها في كلام على نحو ما وجدت في القرآن وكل ما كان من هذا القبيل فهو لاشك معجز.[71]"...

آراء مصطفى صادق الرافعي:

كتب الرافعي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية وخصهما بكتاب سرد فيه أقوال السابقين، وقد أبان في مقدمته أنه سيتناول الإعجاز القرآني من غير الجهة التي مضى عليها الأقدمون، بعد أن أوضح أن الإعجاز القرآني إنما يرجع إلى الأسلوب والنظم والتأليف.

قال:"وهذا الأسلوب، إنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون.[72]"

ويقول:"ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته، وما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة.[73]"

و الإعجاز عند الرافعي إنما هو في النظم والتأليف وسنجير آراءه فيما يأتي:

وجوه الإعجاز البياني عند الرافعي:

١- سلامة أسلوبه من القلق والاضطراب، فليس فيه من الغرابة التي يكسوها البلغاء كلامهم في تجويد وصفه وحبكه، إنما فيه غرابة الانسجام والسهول التي يسيل بها القرآن، وهي السهولة التي يعجز عنها كل الناس.

---

[71] المرجع السابق، ج2، ص 213.

[72] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص213.

[73] المرجع نفسه، ص224.

2- ما في أسلوبه من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة، التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، وكلام الناس لا يحتمل مثل هذه الوجوه، بل إنه كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصا في معناه، ثابتا في حيزه.[74]

3-ما فيه من البلاغة والفصاحة يقتضيه اقتضاء طبيعيا، بحيث يبنى هو عليها ولا تبنى هي عليه فكل ما فيه من مجاز وتمثيل وكفاية لا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه، ولو أدرت اللغة على هذا -الوضع.[75]

4- أن القرآن بمادته اللغوية أصبح فوق اللغة التي يحذقها اللسن من الناس لأنها في القرآن في تركيب ممتنع أن يأتي بمثله الناس، فخرجت من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وكونت طبقة عقلية من اللغة ومن ثم تتنزل الأفكار منزلة التوهم الطبيعي الذي يؤثر بالصفة ما يؤثر بالشيء الموصوف، بل بما وفى وزاد.

5- أن الحركات النحوية والصرفية في القرآن لها من حكم البلاغة والفصاحة ما للكلمات والتركيب، لشدة ما بينها من تلازم وإنتساق، وهذا سر من إسرار الإعجاز فيه.[76]

هذه بعض الوجوه للإعجاز البياني عند الرافعي.

خصائص أسلوب القرآن عند محمد دراز:

وضع دراز كتابا دعاه:"النبأ العظيم"، أو "نظرات جديدة في القرآن" وقدم في هذا الكتاب دراسة غنية جدا عن القرآن الكريم، وقد قسمها قسمين: القسم الأول:

---

[74] المرجع نفسه، ص 252.

[75] المرجع نفسه، ص 257.

[76] المرجع نفسه، ص 258.

خاصة بتحديد معنى القرآن، والقسم الثاني: وقفه على بيان مصدر القرآن أما ما أجمله المؤلف من خصائص الأسلوب القرآني في قطعة قطعة منه فكانت عنده على الوجه الآتي:

1- القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى[77]:

هذه خاصة لم تعرف لغير القرآن، فإن أبلغ البلغاء من الناس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه قليل، ومعناه واف وهو إن اتفق له في الموضع الواحد والموضعين، فلا يتفق له في جملة كلام، شعرا أو نثرا، وما هو بحاصل إلا على كلام نسبي غير مطره، بحسب ما أوتي من إلهام وتوفيق. فأبلغ البلغاء إذا حفل باللفظ أضر بالمعنى، وإذا حفل بالمعنى أضر باللفظ نهايتان من حاول أن يجمع بينهما دون ميل إلى إحداهما.

خذ من القرآن مقدارا من الكلام، وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجبا. ثم أنظر أي الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتعديل أو التبديل دون أن تخل بمعناه؟

ولو نزعت منه بأي القرآن- لفظة ء ثم أدرت لسان العرب لتضع موضعها لفظته أحسن منها لم تجد."

2- خطاب العامة، وخطاب الخاصة:

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم الناس، فمن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه، ومن يخاطب العامة باللمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون.

فلابد من التفرقة في الخطاب، بين المقامين، ولا يوجد في الناس من يحسن هذا كائنا من كان لا تجد ذلك على أتمه إلا في القرآن الكريم هو متعة العامة ونزهة الخاصة ميسر لكل من أراد.[78]

3- إقناع العقل، إمتاع العاطفة:

---

[77] ينظر عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 103.

[78] ينظر المرجع نفسه، ص 107.

في النفس قوتان، قوة تفكير وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى، ولا تجد بليغا يفي لك بحاجة القوتين في عبارة واحدة ولكنك تجد ذلك في القرآن الحكيم، في أجمل صورة وأوضح بيان.

4- البيان، والإجمال:

وهذه عجيبة أخرى لا تجدها في غير القرآن، لأن الناس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

أما القرآن فإنه يستثمر برفق أقل كما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني يستوي في ذلك مواضع إجماله، التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها الإطناب... ولذلك نسميه إيجازا كله لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف.[79]

هذه خلاصة لخصائص القرآن كما ذكرها دراز، بعباراتها إلا ما قل من التصرف توخيا للإيجاز.

النظم والتأليف :

أيد هذا الاتجاه القائل بأن الإعجاز كائن في النظم والتأليف كثير من العلماء وحديثا، منهم الأصبهاني والزملكاني والقاضي عياض، فقد تحدث الأصبهاني عن مراتب تأليف الكلام ثم قال:" فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص، وبيان كون النظم معجزا على بيان نظم الكلام ثم بيان أن نظم هذا الكلام مخالف لنظم ما عداه.[80]"

---

[79] المرجع السابق، ص 111.

[80] جلال الدين السيوطي، الاتفاق في علوم القرآن، ج2، ص 22.

ويفرق الأصبهاني بيت النظم المخصوص الذي هو صورة القرآن، واللفظ والمعنى الذي هو أثره وعنصره، وباختلاف الصورة يختلف حكم الشيء لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذي هو الذهب أو الفضة.[81]"

والقرآن عنده جامع لمحاسن جميع فنون الكلام، على نظم ليس مثل نظومهم كما نقل السيوطي عن الزملكاني قوله:"وجه الإعجاز راجع إلى التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة.[82]"

أما القاضي عياض فإن نظم القرآن يمثل عنده الجانب الأهم في الإعجاز، من حيث حسن التأليف، والتئام الكلام وبلاغته الخارقة عادة العرب فهو من القائلين بأن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف وإن رأى وجوها إضافية للإعجاز.

ويرى ابن عطية أن الإعجاز واقع بالنظم واقع بالنظم وصحة المعاني وقال:"إن هذا ما عليه الجمهور.[83]"

فالنظم، وصحة المعاني، وتوالي فصاحة ألفاظه هي وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم، قال:"ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظه تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحد من البشر لا يحيط بذلك، ولهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ولهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإثبات بقتله، فلما جاءهم النبي – صلى الله عليه وسلم– صرفوا عن ذلك وعجزوا.[84]"

---

[81] ينظر المصدر السابق، ص 119.

[82] المصدر نفسه، ص 119.

[83] الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 97.

[84] المصدر نفسه، ج1، ص 97.

والذي يظهر من هذه النقول أن القول بأن الإعجاز راجع إلى النظـــم والتـــأليف يغلب على الاتجاهات الأخرى، ويكاد يمثل الرأي الذي لا يصح فيه خلاف.

وحتى الذي ذهبوا إلى وجوه أخرى غير النظم والتأليف لم ينسوا فضل نظم القرآن وتأليفه الخاص.

هذا عند الأقدمين أما المحدثون فلا نكاد نرى من يخالف هذا الـــرأي منهـــم وإن أضافوا إليه إعجازا آخر في مجال العلوم والتشريع فهو مازال الرأي السائد .

وقعـــــــــه :

ونقصد بوقعه أمرين:

أ- نظامه الصوتي

ب- جماله اللغوي

الإيقـــــاع لغـــــة :

جاء في لسان العرب [85] ما يـــأتي: وقعـــت الـــدواب ووقعـــت: ربضـــت، ووقعت الإبل ووقعت (مشددة): اطمأنت بالأرض بعد الري.

و يقال سمعت وقع المطر وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل.

فالإيقاع هو إحداث صوت خافت أو رفيع، فالدواب ومنها الإبل عندما تربض تحدث صوتا. وكثيرا مما كتب عن هاتين الناحتين من أسلوب القرآن يطلق عليهما (النظم الموسيقي) أو (الموسيقى الداخلية)، أو (الإيقاع الموسيقي القرآني).[86]

---

[85] ابن منظور، لسان العرب مادة "وقع"، ج10، ص 284.

[86] ينظر عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، تونس، نشر مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، 1980م، ص 224.

وأبرز المتحدثين عن ذلك هو الدكتور محمد عبد الله دراز، في كتابه (النبأ العظيم) صور هذا المعنى تصويرا دقيق، وشخصه تشخيصا محكما حتى يكاد القارئ يراه ماثلا أمام عينيه.

ومن غير اقتباس للفظه أو لمعناه انقل قوله هنا:"أو ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه في تشكله وجوهره.

1- دع القارئ يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على الهوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على الهوى نفسه، ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها، وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرد تجريدا، وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لوجود هذا تجريدا، وجود هذا التجويد.

ستجد اتساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتا، وشطرا شطرا، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبدا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد، وفواصل، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون لماذا كانت العرب اختصمت في القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون لجواب، أن العرب اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين شعر نفيا و إثباتا، ولو تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيره؟ وأنت فهل تبينت ها هنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب و لم يفطن له المستعربون؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن، هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنا بعد آن، على أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحتها العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير، فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

2- فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف، ورصفها، وترتيب أو ضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذلك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر يترلق عليه النفس، وآخر يحتبس عند النفس.

وهلم جرا، فترى المجال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معادلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاما ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها، برقة الحاضرة وسلالتها، وقدر فيه الأمران تقديرا لا يبغي بعضهما على بعض، فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل عنها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم. من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف

القشة السطحية لجمال القرآن، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، لكون ذلك من عوال حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها.

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى جمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز..."[87]

ثم تحدث الدكتور محمد دراز رحمه الله تعالى عن خصائص القرآن البيانية وضرب للأمثلة لها.

ويقول مصطفى صادق الرافعي:"وحين قرئ القرآن على العرب رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله وقعا لغويا رائعا كأنه لائتلاف آياته وسوره قطعة واحدة، أدركوا ذلك وأدركوا أنه لا قدرة لهم على لإتيان بمثله والذين جنحوا لمعارضته منهم كمسيلمة حسبوا أن (وقعه) إنما هو وزن كلماته، وجرس حروفه فحسب، وهذا لا يتفق في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع "[88].

ومن هنا جاء مسيلمة بسجع يضحك الثكلى ويأبى أن يتفوه به من له أدنى درجة من حكمة، وأدرك قزمه زيف قوله، ولكن العصبية الجاهلية عندهم، حملتهم على أن يقول أحدهم مخاطبا مسيلمة:"أشهد أنك كاذب وأن محمدا صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر".[89]

---

[87] د.محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ط4، 1397هـ 1979م، ص 27-28-29.

[88] مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصر-القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط6، 1956م ص 243.

[89] قائل هذه العبارة طلحة النمري، ينظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دان، بيروت، ط2، 1387هـ، ج3، ص286.

أما مثال وقعه في الآيات ففي قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ"

قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ "

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ"

قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ "

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا"

قَالُوا آمَنَّا"

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ"

قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[90]

أساليب حوارية قرآنية :

لقد أثار القرآن الكريم، وفي أساليبه الرسالية، أكثر من أسلوب، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره.[91]

ونحن نأخذ بعض هذه الأساليب على سبيل المثال، وهي:

---

[90] سورة بقرة، الآية 08-16.

[91] ينظر: محمد حسين فضل الله، حوار في القرآن، ص 213.

أسلوب السخرية، أسلوب الإقناع، والأسلوب التربوي وكلها أساليب تعتمد المنهج الفكري المقنع.

- أسلوب السخرية :

مثال على لسان إبراهيم - عليه السلام - قوله لقومه حينما واجهوه بتحطيمه أصنامهم: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[92] .

لقد أفلح إبراهيم عليه السلام في رسم هذه الخطة التي أقحم بها خصومه وأراهم عجز آلهتهم عيانا حيث لم يدفعوا الضر عن أنفسهم ثم استدرجهم من هذه الواقعة إلى أن يلقنهم الحقائق التالية:

- إن هذه الأصنام فاقدة القدرة على النطق كما أنها فاقدة القدرة على أي شيء فهي جماد.

- إن المعبود الذي يستحق العبادة من ينفع ويضر وهؤلاء حيث ثبت عجزهم عن نفع أنفسهم فحرى ألا يعبدوا لعجزهم عن نفع غيرهم وضرهم أما السخرية اللاذعة فإننا نراها في العبارات الآتية:

---

[92] سورة الأنبياء، الآية 57-67.

﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[93].

وقد علم وعلموا أنهم لا ينطقون.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[94].

وفي هذا توبيخ لهم وسخرية بأصنامهم، وإنكار أن يكونوا عابدين لها. وهي لا تنفع ولا تضر.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[95].

مثال على لسان موسى – عليه السلام – قوله تعالى:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[96].

إله يحرق، ثم ينسف ويذري في اليم، ما أتفه هذا الإله.. وما أتعسه.

وما أضل وأتعس من اتخذه إلها.. إن كان فليدفع عن نفسه التحريق والنسف.. وكيف له ذلك؟

ما موقف النفس والعقل معا من هذا الإله المحرق المنسوف نسفا، إن النفس لتسخر منه وتحتقره، وإن العقل ليرفضه أو يصد عنه.

وبعد أن يستقر النفس والعقل معا من هذا الإله المحرق المنسوف نسفا، إن النفس لتسخر منه وتحتقره، وإن العقل ليرفضه أو يصد عنه.

---

[93] سورة الأنبياء الآية 63.

[94] سورة الأنبياء الآية 66.

[95] سورة الأنبياء الآية 67.

[96] سورة طه، الآيات 59-98.

وبعد أن يستقر في العقل والنفس هذا المعنى، تأتي العقيدة الصحيحة لتتمكن بعد تجربة أثبتت فشل فكرة التعدد واتخاذ الأصنام آلهة من دون الله ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [97].

- أسلوب تربوي:

نلاحظ هذا المنهج التربوي الرشيد، والاستدراج الحكيم الذي ساقه القرآن الكريم على لسان النبي إبراهيم عليه السلام، في هذا الحوار

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [98].

---

[97] سورة طه، الآية 98.

[98] سورة الأنعام، الآيات : 74 - 82

فقد أنكر إبراهيم على أبيه وقومه أن يتخذوا أصناما آلهة، ورماهم بالضلال المبين ثم سلك معهم مسلك مجاراة الخصم فيما يزعم من باطل ليستعرض شبهة واحدة تلو الأخرى. فيبطلها، وهكذا حتى إذا ما بقى له شيء يمكنه التمسك به دفع شبهة مرة واحدة وأثبت المطلوب الذي يريد إثباته.[99]

- أسلوب الإقناع :

حين يسوق القرآن الكريم عقيدة من عقائده أو حكما من تشريعه فإنه لا يقف عند هذا فحسب بل يورد من البراهين والأدلة ما لا يبقى عذرا لمستمع، بل وينعى على أولئك الذين لا يعملون عقولهم ويتأملون ويتدبرون﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[100]. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[101].

ولذلك نجد عبارات: (لعلكم تعقلون)، (لقوم يتفكرون)، (لقوم يفقهون) (أفلا يسمعون) (قليلا ما تذكرون) وأمثالها كثيرا ما ترد في القرآن الكريم داعية إلى التفكر والتأمل والتدبر في الأدلة والحجج والبراهين، حتى يقف المسلم على المحجة الواضحة الظاهرة مما يرفع من كرامة الإنسان، ويقيم معتقدون على قناعة من العقل، وطمأنينة من القلب.[102]

ونسوق لهذا الأسلوب مثلا من حوار حي في هذه الآيات :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ

---

[99] ينظر عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ج2، ص81.

[100] سورة الأنفال، الآية 22.

[101] سورة الأعراف، الآية 179.

[102] ينظر، فهد بن سليمان الرومي، خصائص القرآن الكريم، ص 79.

حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[103]

إننا لا نجد حوارا مثل هذا الحوار، ولا بيانا مثل هذا البيان، ولا قياسا أصوب من هذا القياس، ولا براهين أقطع للشبهات وأفحم للخصم وأثبت للمطلوب من هذه الأقيسة.

بعض عناصر الإقناع:

- تحريك العقول والدعوة للنظر والتفكير.
- تقديم 0الأدلة والبراهين.
- الإجابة عن التساؤلات.
- الجميع بين العقل والوجدان.
- الجمع بين الترغيب والتهريب.
- المقابلة والمقارنة مع المعتقدات الأخرى.
- استثارة بواعث الخير في النفوس.
- إثارة التساؤلات.
- القسم، التكرار، التشويق، ضرب المثال.

---

[103] سورة النمل، الآيات، 59-64

- **أسلوب التأثير:**

إذا أخذ أحدنا في الحوار دفاعا عن نفسه أو إقناعا بقضية يراها واضحة ولا يراها خصمه كذلك، تظهر على كلامنا مسحه من الانفعال والتأثر إيجابا أو سلبا، فنفر باقتناع الخصم، ويحزننا ويؤلمنا حين تحقق في ذلك.أما ما نلحظه في حوارات بعض الأنبياء عليهم السلام فنوح عليه السلام، حين جرت به السفينة وبمن آمن معه فتنبهت فيه عاطفة الأبوة، فأخذ ينادي أبنه يحاول إقناعه (متأثرا) بهذه العاطفة فيناديه بأكثر العبارات تدفقا للاستعطاف من الأب لابنه (يا بني):﴿ يَابُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.[104]

و لم تحفل البنوة العاقة باستعطاف الأب فآوت إلى فتوتها مخدوعة بقوتها:﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[105]، فتجيبه عاطفة الأبوة التي لا تزال تتدفق ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[106]، ثم تستدرك هذه العاطفة متشبثة بأمل: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[107]، حتى لا تقطع أملها ويحسم الموقف موج كالجبال، ومع هذا فلم يقض هذا الموج بضخامته على عاطفته، فما زالت تتدفق، وترفع كفيها:﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[108]، ويأتيها الجواب الحكيم الذي لا يشوبه التأثر فتقنع وتسلم الأمر[109].

هذه عاطفة سيدنا نوح في جدله ابنه طغت على أسلوبه فأثرت عليه فصاغ كلامه وفق رغبتها.

---

[104] سورة هود، الآيتين 42-43.

[105] سورة هود، الآية 43.

[106] سورة هود، الآية 43.

[107] سورة هود، الآية 43.

[108] سورة هود، الآية 45.

[109] فهد الرومي، خصائص القرآن الكريم، ص 55.

ونأخذ مثلا آخر في قصة إبراهيم عليه السلام مع والده:

في هذه المرة غلبت عاطفة البنوة فخاطب الابن والده ممتطيا صهوة أكثر العبارات تأثيرا في قلب أقسى الأباء (يا أبت)، مصدرا هذا النداء لكل جملة يوجهها إلى والده﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.[110]

استعطاف ما بعده استعطاف، وشفقة ما بعدها شفقة، تكاد كل كلمة تفيض عاطفة وتأثرا من إعراض والده عن دعوته، وكما لهم تحفل البنوة العامة باستعطاف الأب في قصة نوع مع ابنه، فإن الأبوة هنا لكل قسوتها تظهر في جواب الأب حتى كلمة (يا بني) لم تظهر من فم الأب لما فيها من فيض عاطفة واستبدل بها: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[111] غلظة ما بعدها غلظة، وزادها غلظة ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[112]، وهذه العاطفة من إبراهيم عليه السلام طغت على أسلوبه فأثرت عليه فصاغ كلامه وفق رغبتها، وطغت القسوة على أسلوب الأب فأثرت عليه فصاغ كلامه وفق رغبتها أيضا.[113]

وإنما تظهر مسحة الانفعال في الحديث إيجابا وسلبا في كلام البشر وما هي إلا قصور في الحول والقوة والقدرة فعوضته بما يحقق غرضها ويشبع رغبتها أم القرآن الكريم فلا يظهر عليه هذه السمة في جدله بل تلمح من وراء العبارة قوة أعلى من أن

---

[110] سورة مريم: الآيات، 42-45.

[111] سورة مريم، الآية 46.

[112] سورة مريم، الآية 46.

[113] المرجع السابق، ص 56.

تنفعل قوة تؤثر ولا تتأثر تسوق الحجج والبراهين في عزة من لا تنفعه الاستجابة ولا تضره المعصية.

يقول فهد بن سليمان الرومي [114]في هذا المقام:"أنظر إلى حين يجادل عن القرآن الكريم فلا يزيد في وصفه على كلمة:﴿ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [115]هكذا بكل عزة في لجة الخصام ووسط معمعة الشبهات تصدع كلمة (وهو الحق)، ولو أراد بشر أن يدفع عن نفسه في مثل هذا الموقف لانتفخت أوداجه، وغلت شرايينه، وعلا صوته، وأسهب قوله، كيف لا والحق معه وأولئك يغالطون في حقائق لا تلتبس، ولكن هذا القرآن ليس بكلام بشر حتى يكون كذلك، ولكنه كلام الكبير المتعال وأنظر إلى جدل القرآن في موضع آخر يدفع عن نفسه نسبته إلى بشر يعينه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فجاء الجواب بلا انفعال:﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ .[116]

بكل استعلاء وكبرياء جاء الجواب بإبطال هذه النسبة حتى أنه لم يخرج عن حدود الشبهة فلم ينف في هذا الموضع نسبته لإنسان آخر وإنما أبطل نسبته لشخص معين هو هذا الشخص الذي ألحدوا الله وكأنما فصل هذا الجواب على هذا الشبهة تفصيلا، لله ما أعف هذه الخصومة، وما أعز هذا المتكلم وما غناه عن الاستعطاف، لا تنفعه طاعة فيستجديها ولا تضره معصية فيستدفعها، تالله ما هذا بكلام بشر بل كلام عزيز كبير حكيم متعال.[117]

---

[114] المرجع السابق، ص 56.

[115] سورة البقرة، الآية 91.

[116] سورة النحل، الآية 103.

[117] ينظر عبد الله دراز، النبأ العظيم، مرجع سابق، ص 126، 127.

الفصل الثالث

الأسلوب الحواري

دراسة تحليلية لنصوص

من سورتي البقرة والمائدة.

- حوار مع المنافقين.
- حوار الله مع آدم والملائكة.
- حوار الله مع إبليس.
- حوار هابيل مع قابيل.
- حوارات الله مع الأنبياء عليهم السلام.
- حوارات الأنبياء مع أقوامهم.

حـــوار مـــع الـــمنـــافـــقـــيـــن :

قال الله تعالى

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾
- ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾
- ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾
- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
- ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾
- ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾
- ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾
- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1].

قبل أن نعيش مع هذه الآيات نلقي نظرة على بدايتها وهي مفتتـــح النـــص لأن بدايات الكلام تكتسب أهمية بوصفها انحرافا عن صمت أو فراغ وتعد هذه البدايـــات تأسيسا لمتوالية من المعاني التي تعلن في اكتمالها الأخير ولادة نظام ما وقد أطلق القدمـــاء على بداية الكلام عدة مصطلحات منها الطلع والافتتاح والاســـتهلال وقـــال حـــازم القرطاجنى في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

---

[1] سورة البقرة ، الآيات 8 - 16.

"واعتنوا باستفتاحات الفصول واجتهدوا في أن يهيؤها بهيئات تحسن بهـــا مواقعهـــا في النفوس وتوقظ نشاطها لتلقي ما يتبعها وما يتصل بها وصدروها بالأقاويل الدالة علـــى الهيئات التي من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات لأمـــور ســـارة أو ناجحة أو شاجية بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك"[2]

والمفتتح دليل الدلالة حيث تعني الدلالة كما يقول "وبستر" ما هو متوار وخفـــي ومضمر في شيء ما وما يتميز عن معناه الظاهري.

وفي تأكيد حازم الفاعلية النفسية للتلقي ما يصل بين مصطلح الافتتاح والحركـــة الداخلية للمشاعر وإذا كانت الدلالة تأسيسا على "وبستر" هي الحركة الداخلية لعلاقات المعنى فإن المفتتح هو دليلنا إلى هذه الحركة التي تتجاوب مع التيار الباطني للعاطفة وذلك لأن المفتتح حث أولا للكلام على التوالد والتحول والاتصال والنمو.

أما ابن القيم الجوزية فكان يسمي افتتاح سور القرآن بالحروف المفردة والمركبـــة الابتداء الخفي ويسمى ما عدا ذلك الابتداء الجلي.[3]

مفتتح السورة (ألف، لام، ميم) وهي الإعجاز الذي يشير ويؤكـــد أن القـــرآن الكريم إنما هو مجموعة أحرف استعملت بشكل يستعصىعلى الإنسان مهما بلغ أن يصل إليه، فالأحرف القرآنية توجه إلينا التحدي منذ البداية تحدي إلى البشر والبشـــر إمـــا أن يكونوا مؤمنين أو كافرين أو منافقين.

عرض: يتحدث القرآن في هذه الآيات والتي قبلها عن طائفتين من الناس طائفـــة كافرة وأخرى جمعت إلى الكفر النفاق. وفي حديثه عن كل من الطائفتين ذكر أوصافها وأسباب تلك الأوصاف وجزاءها المدخر لها في الآخرة في شأن المنافقين: ما المنافقون فقد بدأ الله جل جلاله قصتهم بمطلع مجمل.

---

[2] حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الجيس بن خوجة ،بيروت ، ط2. 1981، ص296.

[3] ينظر وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، القاهرة، المعهد العالي للفكر الإســـلامي، ط1، 1418هـــ-1997م، ص79.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وطائفة المنافقين معقدة الأحوال لها ظاهر طيب وباطن خبيث ولهذا سلك القرآن في حديثه عنهم مسلكا فيه شيء من تفصيل إذا ما قيس بحديثه عن طائفة الكافرين فقد جاء حديثهم في إحدى عشرة آية من نص بلغت جملة آياته خمس عشر آية، وقد اشتمل هذا المقطع الحواري على جملة من صور المجاز والمعاني والبديع

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

تشتمل هذه الآية علي صغرها إجمال قصة المنافقين وتحتوي على أصول القضية وفروعها وإثبات الإيمان في صدر الآية حسب دعاهم ونفيه عنهم في عجزها، حسب علم الله بهم، يمثل عند البلغاء ما يسمونهم طباق السلب وأثره في جمال الأسلوب واضح.

وإسناد المد إلى الله مجاز عقلي عند الزمخشري لأن فاعل المد عنده هو الشيطان. وأسند إلى الله لأن سببه المقدر عليه، وقد أنكر الزمخشري أن يراد به الإمهال التالي وهو رأي المفسرين وحجته أنه يعد بنفسه إذا كان بمعنى الزيادة، كما في الآية- ويعد بـ"اللام" إذا كان بمعنى الإمهال.

قال:"فإن قلت: ما حملهم – يعني المفسرين- على تفسير المد في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة – كما ذكرت – لا يطاوع عليه؟ قلت: استأجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشيطان ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته إذا كان بمنزلة الأروي من النعام، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بمذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادر، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل"[5].

---

[4] سورة البقرة، الآية: 8.

[5] الزمخشري ،الكشاف، لبنان- بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، 1397هـ-1977م، ج1، ص571.

العمه والعمى:

العمه: مثل "العمى" إلا أن العمى يشمل فقد البصر، وخطل الرأي بينما العمه خاص بظلام الرأي ومنه قولهم سلك أرضا عمها أي: لا منار فيها[6].

الخداع والإفساد :

قوله تعال﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[7].

ثم قوله تعالى:﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[8].

في الآية الأولى استعمل المولى ﷻ النفي ب (ما) فقال :"وما يشعرون" وفي الآية الثانية استعمل النفي بـ (لا)، فقال "ولا يشعرون"، ومن المعلوم أن هناك فرق بين النفي ب (ما)، والنفي ب (لا)، ف (ما) تنفي الحال، أي تنفي الفعل الواقع في الزمن الحاضر، ونفي (لا) ممتد يشمل الحاضر والمتقبل، فاستعمال النفي بـ(ما) في المخادعة وعدم الشعور بها من قبل أصحابها، لأن المخادعة ليست عملا مستمرا دون انقطاع ، بل هي تحصل بين الفنية والفنية، ولا يمكن تصورها، لاحتمال أن يكتشف المؤمنون حقيقتها، فلا تكون مجدية ولا نافعة، فناسب التعبير عن ذلك النفي ب(ما) التي لنفي الحال أما الإفساد فهو خصلة سوء ملازمة لأصحابها المنافقين، ولذلك تأمل تعبير الله عن هذه الخصلة فيهمن إذ استعمل الجملة الاسمية المؤكدة بعدد من المؤكدات :(ألا) و(هم)، (المفسدون)، ولكنهم فقدوا كل إحساس أو شعور بحالهم المفسدة، فصار اليأس من استيقاظهم أمرا محتما، فناسب التعبير عن ذلك النفي بـ (لا).

---

[6] ينظر: المصدر السابق، ج1، ص188.

[7] سورة البقرة الآية 09.

[8] سورة البقرة، الآية 12.

مناظرة بين المؤمنين والمنافقين:

نتدبر قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.[9]

قال المؤمنون[10] للمنافقين :﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فأجابهم المنافقون بقولهم : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان كونهم مفسدين، وإن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد.

فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات.

أحدها: تكذيبهم.

الثاني: الإخبار بأنهم مفسدون.

الثالث: حصر الفساد فيهم بقوله :﴿ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

الرابع: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.[11]

وبعد أن نفى الله تعالى الشعور عنهم في هذا الموضع، نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[12].فقال لهم:﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[13]، فنفى علمهم بسفههم، وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل، أن يكون الرجل مفسدا، ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله، وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيها والسفه غاية الجهل، وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده، وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة، وهو لا يعلم بحاله،

---

[9] سورة البقرة الآيات، 11-12.

[10] ينظر: صالح العايد، نظرات لغوية في القرآن الكريم، ص 25.

[11] ينظر المرجع نفسه، ص 26.

[12] سورة البقرة، الآية 13.

[13] سورة البقرة، الآية 13.

كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحا، والشر خيرا.[14]

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.[15]

نتأمل النظم القرآني في غاية الإبداع وهو يزاوج بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، ويكون التعبير بإحداهما في سياق لا تنفع فيه الأخرى، فالاسم يدل على الحدث أو الحقيقة غير مقرون بزمان، أما الفعل فيدل على الحدث مقرونا بزمان، وكل ما كان زمانيا هو متغير، والتغير يشعر بالتجدد والحدوث، ولذلك كانت الجملة الفعلية تدل على التجدد والحدوث، أما الجملة الاسمية فتدل على الثبوت والدوام.

ونلاحظ خطاب المنافقين للمؤمنين (آمنا)، وهي جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث، وأردوا الدلالة على حدوث الإيمان في قلوبهم والإيماء إلى تجدد فيها، والإشعار بتحولهم عما كان المؤمنون يعرفونه فيهم من الكفر والنفاق.

أما حين خاطبوا إخوانهم الكفار واليهود فقد خاطبوهم بقولهم: "إنا معكم"، وهي جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام على كفرهم، للدلالة والتأكيد على أن إظهارهم الإيمان أمام المؤمنين إما كان للتعميه والخداع، وليس إيمانا حقيقيا، ولذلك أكدوا خطابهم لهم ب (إن) وبالجملة الاسمية، فالتعبير بالجملة الاسمية نوع من أنواع التأكيد.

---

[14] ينظر المرجع السابق، ص 27.

[15] سورة البقرة، الآية 14.

وكذلك نجد أن خطابهم للمؤمنين ورد غير مؤكد بمؤكدات، مع أن المؤمنين يشكون في إيمانهم، ونجد أن خطابهم لإخوانهم الكافرين مؤكد بمؤكدين، هما: الجملة الاسمية، و(إن)، مع أن ظاهر الحال يدل على أن إخوانهم الكفار لا يشكون في بقائهم على دينهم، وكان مقتضى الحال يقتضي بأن يعكسوا في كلامهم، فيؤكدوا خطابهم للمؤمنين، ولا يؤكدوا خطابهم لقومهم، فما السر فيما جرى عليه الكلام في الآية؟

الجواب عن ذلك كما يقول ابن القيم في بدائع الفوائد:"أنه جرى على خلاف مقتضى الظاهر لمراعاة ما هو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر فخلو خطابهم مع المؤمنين عما يفيد تأكيد الخبر، لأنهم لا يردون أن يعرضوا أنفسهم في معرض من يتطرق ساحته الشك في صدقه، لأنهم إذا فعلوا ذلك فقد أيقظوهم إلى الشك، وذلك من إتقان نفاقهم، على أنه قد يكون المؤمنون أخلياء الذهن من الشك في المنافقين، لعدم يعنهم عندهم، فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقتضى الظاهر.

"وأما قولهم لقومهم (إنا معكم) بالتأكيد فذلك له لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر، وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم."

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[16].

عبر عنهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد، إشارة إلى بعدهم عن الحق الذي باعوه فكان في هذا التعبير براعة استهلال من أول مطلع.

و"الإشتراء" افتعال من الشراء وهو هنا مستعار من معناه اللغوي المعروف لاستبدالهم الضلالة بالهدى.

---

[16] سورة البقرة الآية: 16.

لأنه يفيد اختيارهم للضلالة على الهدى، والاستعارة فيه تصريحية تبعية جريانها في المشتق[17].

ولذلك ناسب أن يسمى عملهم هذا: "تجارة"، ولما كان العرض المبيع "الهدى" ليس متعاملا مع ثمن المبذول "الضلالة" كانت التجارة خاسرة.

وفي إطلاق معنى "تجارة" عليه مجاز استعاري أيضا لكنها استعارة تصريحية أصلية لجريانها في غير المشتق.

وإسناد نفي الربح عنها مجاز عقلي حقيقية: فما ربحوا في تجارتهم، وسره البلاغي أن إثبات الخسارة لتجارتهم مفيد لبطلانها أساسا.

وإذا خسرت تجارتهم كانوا هم خاسرين من باب أولى[18].

وقد ذكر الله في الرد "وما هم بمؤمنين" غير معد الوصف بـ "مؤمنين" إلى معمول، فما هم بمؤمنين بالله ولا باليوم الأخر، وذكر هما في الدعوى أغنى في الرد عليها، كما نلاحظ دخول حرف الجر على الوصف، وذكره مفيد لتأكيد النسبة، لينفي عنهم نفيا مؤكدا، ما أرادوا أن يروجوه عنه رواجا مؤكدا وبهذا تعادلت كفتا الميزان.[19]

ثم للنظر إلى دقة التعبير إنه تعالى قال:"من يقول آمنا" و لم يقل:"ومن الناس من آمن بالله"، لأن القول غير الإيمان ولو كان كذلك لما جاز نفيه.

فكل لفظة موضوعة في حساب ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[20].

هذا شروع في تفسير قصة المنافقين و"الخداع" أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ومن قولهم: ضب خادع.

---

[17] ينظر: الدكتور عبد العظيم المعطي، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج2، ص315.

[18] المرجع نفسه، ج2، ص329.

[19] نفسه، ج2، ص307.

[20] سورة البقرة: الآية 09.

ويجيب صاحب المفردات فيذكر قوله تعالى "يخادعون الله" أي يخادعون رسول الله وأوليائه، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كمعاملته، ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[21] وجعل ذلك خداعا تفضيعا لفعلهم وتنبيها على عظم الرسول وعظم أو لبائه، وقول أهل اللغة: إن هذا على حدق وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أوتي بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين:

أحدهما: فضاعة فعلهم فيما تحروه من اللفظ معه، وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله.

وثانيهما: التنبيه على عظمة المقصود بالخداع وأن معاملته كمعاملة الله[22]

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[23].

الخطاب في الشق الأول من الآية مع مؤمنين ينكرون كل الإنكار أن يؤمن أهل النفاق. والخطاب في الشق الثاني منها موجه إلى شياطينهم، وهم لا ينكرون أنهم معهم باقون على الكفر والنفاق.

وقد جاء في خطابهم شياطينهم "إنما نحن مستهزئون" وفسروا قولهم مع المؤمنين "آمنا" بأنه ليس إلا استهزاء، فكان الرد عليهم فيه قوة وتوكيد، على غرار ما أثبتوه هم "الله يستهزأ بهم" فأكد ذلك باسمية الجملة، وبأن الله هو الذي يستهزأ بهم

والاستهزاء من الله مجاز إذ لا يصح ذلك منه على وجه الحقيقة، ولهذا فسروا هذه الآية بأن الله يجازيهم على الهزأ، ومعناه: أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مغامضة، فسمي

---

[21] ينظر المرجع السابق، ج2، ص306.

[22] ينظر المرجع نفسه، ج2، ص306.

[23] سورة البقرة الآية 14-15.

إمهاله إياهم استهزاءا من حيث أنهم اغتروا به اغترارهم بالهزأ فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون[24].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

مادة "مد" تدور في المعاجم اللغوية حول معنى الزيادة والتكثير من مد الجيش وأمده إذ زاده بما يقويه ويكثره.

ويقال مده الشيطان في الغي والضلال وأمده: إذا واصله بالوسواس حتى يتصل غيه، ويزداد انهماكا في المعاصي.[25]

ويرى الزمخشري[26] أن هذا مجاز عند البيانيين لأنهم تعاطوا- أي المنافقين حسب ظنهم- أفعال المخادع، والدليل عليه صدق نفيه في عجز الآية وما يخدعون إلا أنفسهم مجاز استعاري كذلك لأن المرء لا يخدع نفسه وإنما سميا إضرارهم أنفسهم "خداعا"، حيث كانوا لا يشعرون بأن في عملهم هذا ما يعود عليهم بالضرر وقد حسن من موقع المجاز هنا مشاكلته للمجاز الأول بلفظه ومعناه.

وليس ضرر المنافقين بواقع على أحد، وإنما هو واقع بهم، وهذا المعنى أفاد القصر في الآية الذي طريقه النفي والإثبات[27]

ولهذه المادة "خدع" مواضع في القرآن جاءت في واحد منها على معناها اللغوي، وجاءت في بقية المواضع على الطريق المجاز منها الاثنان اللذان في آياتنا هذه وقد وضح المجاز فيهما، أما المواضع الأخرى فهي:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ

---

[24] ينظر: المرجع السابق ،ج2، ص 315.

[25] ينظر المرجع نفسه، ج2، ص315.

[26] ينظر: الزمخشري ، الكشاف، ج1، ص 571.

[27] ينظر: د. عبد العظيم المطعي، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج2، ص307.

خَادِعُهُمْ ﴾[28] ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[29].

فالمراد بالمرض الذي في القلوب هو الكفر والنفاق، وهذا على سبيل المجاز الاستعاري والاستعارة فيه تصريحية أصلية، ويذكر الراغب بسبب تشبيه الكفر وغيرهما بالمرض ويرجع ذلك بما يأتي: إما لأنها مانعة من إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل. وإما لأنها مانعة من تحصيل الحياة الأخروية.

و إما لميل النفس بها إلى الاعتقادات الرديئة، ومعنى ذلك: "فزادهم الله مرض" أي: كفرا ونفاقا، مجاز كذلك جاء مشاكل للمجاز الأول، وقد استعار القرآن هذه المادة "مرض" من دلالتها الوضعية إلى معالم مجازية في إحدى عشر آية كريمة.[30]

لذلك ناسب أن يسمى عملهم هذا:"تجارة"، ولما كان العرض المبيع "الهدى" ليس متعاملا مع ثمن المبذول "الضلالة" كانت التجارة خاسرة.

وفي إطلاق معنى "تجارة" عليه مجاز استعاري أيضا لكنها استعارة تصريحية أصلية لجريانها في غير المشتق.

وإسناد نفي الربح عنها مجاز عقلي حقيقية: فما ربحوا في تجارتهم، وسره البلاغي أن إثبات الخسارة لتجارتهم مفيد لبطلانها أساسا.

وإذا خسرت تجارتهم كانوا هم خاسرين من باب أولى[31].

---

[28] سورة النساء الآية 142.

[29] سورة البقرة الآية 10.

[30] ينظر: المرجع السابق، ج2، ص311.

[31] ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص315.

نماذج من الشخصيات:

للإنسان جانب كبير في القرآن الكريم، يرقب سلوكه ويضبط أحواله، والنـــاس بحسب سلوكهم وعقائدهم في القرآن الكريم أنواع وصنوف، وقد تضمنهـــم الحـوار وصورهم تصويرا رائعا ومن هؤلاء الأشخاص من أحبار اليهـود -مثـلا- أو الكفـار أو المنافقون، الذين دأبوا على الغدر والخيانة و لم يرعوا لله عهدا ولا ذمة.

رصد القرآن الكريم هذا السلوك الشائن، وسجله في آية من سورة البقرة حيـث يقول سبحانه﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[32].

وفي الآية ثلاث جرائم ارتكبها الأحبار أو المنافقون أو الكفار كما جاء في كتـب التفسير وتلك الجرائم هي :

1- نقض عهد الله.

2- قطع ما أمر الله به أن يوصل.

3- الإفساد في الأرض.

ونقض العهد هو عدم الوفاء به وعبر عنه القرآن بالنقص فقال:﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ والميثاق بمعنى التوثقة أي الإحكام والتوثيق، وهذا التعبير مجازي لأن النقض حقيقة هو: نقض البناء والحبل[33]وهو: انتشار العقد من البناء والحبل والعقد، وهو ضد الإبرام[34]

---

[32]سورة البقرة، الآية 27.

[33] مختار الصحاح.

[34] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 90.

مادة: نقض في القرآن الكريم

وقد جاءت هذه الكلمة "نقض" بمعنى المجاز أيضا في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مرادا بها ما أريد بها هنا، مثل قوله تعالى﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.[35]

وجاء قبل هذه الآية قوله تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.[36]

ومنها قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.[37]

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.[38]

وقوله تعالى﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[39]

وكنتيجة نقول أن استعمالات كلمة "نقض" في صورها المختلفة، عبر بها القرآن الكريم عن إبطال العهد وعدم الوفاء به بعد الالتزام والتحمل وإبطال العهد أمر معنوي، أما النقض فهو أمر حسي.

---

[35] سورة النحل، الآية 92.

[36] سورة النحل، الآية 91.

[37] سورة الأنفال، الآية 53.

[38] سورة الرعد، الآية 20.

[39] سورة البقرة، الآية 27.

و استعماله في المعنوي مظهر من مظاهر إبراز القرآن للمعاني المعقولة في صـــورة المحسوسة إعتناءا بالمعنى، وإظهارا له في أجلى صور الوضوح، وهو فك التركيب والفسخ فيما هو محسوس، والمآل واحد في جميع التفسيرات، وهذا يقضي بكون النقض واقعا على العهد مجازا شبه فيه المعنوي بالحسي تصويرا للمعنى وتشخيصا ليكون أوضـــح وأمثـــل أمام النظر، قال الزمخشري في توجيه المجاز في الآية المذكورة.

" النقض : الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقـــض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة يا رسول الله، إن بيننا وبـــين القوم حبالا ونحن قاطعوها، فنخشى أن الله عز وجل أعـــزك وأظهـــرك أن ترجـــع إلى قومك، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشـــيء المســـتعار ثـــم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت إمرأة فاستوترها، لم تقل هـــذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش."

والاستعارة التي يقصدها الزمخشري هنا هي الاستعارة المكنية لأن تحليله لمجاز الآية ينطبق عليها.

وعلى هذا فإن العهد قد سمي بالحبل، فالحبل مشبه به، حذف ورمز له بشيء من لوازمه الذي هو النقض، والقرينة هي إثبات النقض للعهد، أما الجامع بين الحبل والعهد، فهو الإحكام والاستيثاق.

و قد أظهر المجاز المعنى في صورة المحسوس ليكون أبين وأظهر، ولينفر من هـــذا السلوك المشين لأن فك إحكام الحبل هدم لعمل بذل فيه صاحبه جهدا ولأن الحبل بعـــد فكه يصبح عديم الجدوى.

أما الجريمة الثانية التي ارتكبها المخالفون فهي قطع ما أمر الله به أن يوصل: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾.[40]

ونجد أن القطع والوصل في غير ما خصهما به الوضع، لأن القطع مستعمل حقيقة في الأجسام الصلبة، فهو في أمر حسي، وكذلك الوصل يستعمل في المحسوسات، والمراد منهما في الآية كما يرى المفسرون، يحتمل كل قطيعة لا يرضى الله سبحانه بها كقطع الرحم، ومعاداة المؤمنين، والتفرقة بين المفروضة وسائر ما فيه رفض خير، أو تعافي شر فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي مقصودة بالذات من كل فصل ووصل.[41]

وهذه أمور معنوية قد عبر عنها بما يعبر به عن الحسية جريا على سنة القرآن في التصوير والتشخيص.

وقد وردت المادة (ق.ط.ع) على سبيل المجاز وعلى سبيل الحقيقة، فمن المجاز ما ورد في هذه الآية:﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ونوع المجاز فيه استعاري حيث شبه تركهم ما أمر الله به أن يؤتى بقطع ما هو موصول متماسك، والقرينة حالية إذ سياق الحديث في التكاليف الشرعية.[42]

والجامع بين المستعار منه والمستعار له زوال الأثر في كل، فالموصول إذا قطع ذهبت قوته والانتفاع به، وما أمر الله به أن يؤتى إذا ترك زال أثره من رضوان الله وإثباته.[43]

وكذلك استعمل القرآن الكريم مادة:(و.ص.ل) بمعنى الوصل (استعمالا مجازيا في المواضيع الآتية :

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.[44]

---

[40] سورة البقرة، الآية 27.

[41] ينظر: عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ج1، ص 463.

[42] ينظر المرجع نفسه، ج1، ص 463.

[43] نفسه، ج1، ص463.

[44] سورة الرعد، الآية 21.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[45]

ولم يستعمل القرآن هذه المادة (و.ص.ل) إذا كان مرادا بها (الوصل) استعمالا حقيقيا بل مجازيا، وإنما استعمل ذلك في مواضيع مقصود منها (الوصول) دون (الوصل) مثل قوله الله تعالى:﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ .[46] والملاحظ أن استعمال المادة الأولى (ق.ط.ع) في القرآن أكثر من استعمال مادة (و.ص.ل) وأن جانب المجاز في المادتين هو الغالب هاته: قطع، ووصل في القرآن:

من استعمالات القرآن المجازية لهذه الكلمة النصوص الآتية:

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.[47]

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾.[48]

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.[49]

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.[50]

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.[51]

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.[52]

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ .[53]

---

[45] سورة القصص، الآية: 51.

[46] سورة القصص، الآية 35.

[47] سورة الأعراف، الآية 72.

[48] سورة العنكبوت، الآية 29.

[49] سورة آل عمران، الآية 127.

[50] سورة الأعراف، الآية: 160.

[51] سورة محمد، الآية: 22.

[52] سورة البقرة، الآية 166.

[53] سورة الأنبياء، الآية 93.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي﴾.[54]

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.[55]

وإنما كان التعبير في هذه النصوص مجازيا إستعاريا لاستعمل اللفظ :(مقطـــــع) في الأمور المعقولة، للمبالغة في بيان المعنى وتوكيده وتقريره كما هو الملحوظ في كل مجاز.

أما استعمالاتها الحقيقة فكثيرة منها المواضع الآتية:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾.[56]

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.[57]

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.[58]

---

[54] سورة النمل، الآية: 32.

[55] سورة الحجر، الآية 66.

[56] سورة المائدة، الآية 38.

[57] سورة طه، الآية 71.

[58] سورة يوسف، الآية 31.

حوار الله مع آدم والملائكة :

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

﴿قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[59].

---

[59] سورة البقرة ، الآيات 30- 39.

اشتملت هذه الآيات البينات قصة – آدم – عليه السلام، التي تكررت في سور أخرى (الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص) مع اختلاف في طرق الصياغة وعرض الفكرة.

التكرار في القصة :

تكرار القصة في القرآن هو السمة الغالبة على معظم قصصه والقصص القرآني في جملته مسوق لغرضين أساسيين [60]

أولا: تسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتثبيت فؤاده، أنه لم يكن بدعا من الرسل خولفوا مثل مخالفته، وحق على المخالفين العذاب، ونصر الله رسله وجنده.

ثانيا: تهديد وزجر المخالفين، وبيان مصير أمثالهم، علهم يرتدعون ويقلعون من غيهم.

فتكرار القصة القرآنية في أكثر من موضع ظاهرة فنية ودعامة تربوية كان لابد أن تكون.

ومع هذا المقتضى فإن تكرار القصة في القرآن لم يكن على نمط واحد، فهناك اختلاف في الصياغة وهناك اختلاف في الطول والقصر واختلاف في الأحداث، وطريقة عرض تلك الأحداث [61]

يقول صاحب "البرهان" موجها لتكرار القصة في القرآن:"إن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء- أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء إليه، كررته توكيدا وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء، والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطبته فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة"[62]

---

[60] ينظر: د. عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج1، ص333.

[61] ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص334.

[62] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص9.

ويمضي الزركشي بعد هذا موضحا لظاهرة التكرار في الأسلوب القرآني، ويسوق أدلة من القرآن نفسه لبيان صحة ما يقول وأهم غرض فيه وهو إفادته التقرير والتوكيد قال: "وفائدته العظمى التقرير" وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر فقرر به [63].

وهنا لابد أن نقرر حقيقة هامة، هي:"أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب بل إن كثيرا من المستشرقين قد شهدوا بذلك- كما نقل عنهم عبد الكريم الخطيب في كتاب"الإعجاز القرآني".

عناصر قصة آدم في سورة البقرة:

إخبار الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة

1-تعجب الملائكة لسبيان.

2-رد الله عليهم.

3-تعليم الله آدم الأسماء كلها.

4-عرضهم على الملائكة، ومطالبتهم بالإنباء على سبيل الإخبار المؤدي إلى العجز.

5- تنزيه الملائكة الله وتفويض الأمر إليه.

6- أمر الله آدم إخبارهم بالأسماء وامتثال آدم بهذا الأمر

7- استئثار الله بغيب السماوات والأرض وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها.

8- أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم وامتثالهم لهذا الأمر.

9- مخالفة إبليس واستكباره وصيرورته من الكافرين.

10- أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يتمتع بما فيها من أنعام.

11- تحريم الله عليهما قربان الشجرة فيها، فإن قرباها صار ظالمين.

12- إغواء الشيطان لهما، وأكلهما من الشجرة المحرمة، وإخراجه لهما .

13- أمر الله لهما بالهبوط من الجنة إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم.

14- واستقرارهم في الأرض واستمتاعهم فيها إلى حين.

---

[63] المرجع السابق، ج3، ص9.

15- تلقى آدم من ربه كلمات، وتوبة الله عليه.

16- تكرار الأمر بالهبوط وترقب هدى الله فمن اتبع هدى الله أمن وسلم، ومن عصاه أدخله النار وأخلده فيها.[64]

"إني جاعل في الأرض خليفة" في مطلع هذا الحوار تستوقفنا كلمة "الخلافة" وهي: إعمار الأرض، وهذه المهمة - مهمة السعي إلى الخير والعمران في الأرض صعبة عرفتها الملائكة بقولها "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟"

و هذا يدل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها وإما لما كان الاستفهام المشوب بالتعجب موقع. وأوثر التعبير بالفعل المضارع في قوله "من يفسد ويسفك" لأن المضارع يدل على التجدد والحدوث دون الدوام[65]

تعلم هذه اللغة في هذا العالم مقصورة على فصيلة الإنسان وحده فقط الذي خصه الله بهذه القدرة بعد تركيز المعرفة مسميات الأشياء وإعطاء الإنسان سر اللغة، كان الامتحان الصعب للملائكة:

﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

عجز مطبق !! تعترف الملائكة بالجهل أمام التحدي الصاعق:

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

اعتراف صريح بالعجز من غير تبجح ولا ادعاء، فالله وحده هو العليم الحكيم، وحكمته قضت بأن يعلم أمره لهذا دون أن يعلمه للآخر. وتلك خاصية المولى[66].

الموقف ممتلئ بالتحدي: فإن كانت الملائكة تريد الخلاف على الأرض فطريقها هو النجاح في الامتحان الصعب الموجه إليها. الموقف صعب.

---

[64] عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ج1، ص403.

[65] الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984- ج1، ص403.

[66] ينظر: أحمد سنبل، الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، ص20.

هو بين الله سبحانه وتعالى العارف العليم الحكيم والملائكة الذين تنتهي حدود علمهم عن الحد الذي أعطاهم إياهم المولى سبحانه العليم الحكيم. لقد أسقط في يد الملائكة لا مجال إلا القول "لا علم لنا إلا ما علمتنا".

ثم المقارنة والاستنتاج بعد الفحص والاستقراء، حيث يأمر سبحانه آدم "يا آدم أنبأهم بأسمائهم"

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

التسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه ولذلك يسمى ذكر الله تسبيحا.

و التقديس، التنزيه والتطهير وهو إما بالفعل وإما بالاعتقاد كما في الحديث "لقدست أمة لا يأخذ لضعيفها من قويها"

أي لا نزهها الله تعالى وطهرها من الأرجاس الشيطانية[67].

فمعنى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك نحن نعظمك وننزهك والأول بالقول والعمل والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة بالذات العليا، فلا يتوه التكرار بين نسبح ونقدس.[68]

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾[69].

العلم هو المعرفة، حقيقة المعرفة، والمعرفة لا تتم إلا بلغة هي الوسيلة بالتعبير عنها.

واللغة هي كلام لا لغو فيه عند العرب. هو العقل وإذا وازنا الكلام عند الإنسان باللغة عند الحيوان لوجدنا أن لغة الحيوانات هي صراخ يعبر عن حالة انفعالية محددة لا تصل بشكل من الأشكال إلى حد الترميز والتجريد، أو الإفصاح عن ما تريد كحد أدنى، بينما نجد لغة الإنسان تقوم بذلك كله بتماسك يضفيه العقل عليها.

---

[67] ينظر: الشيخ طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص405.

[68] ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص406.

[69] سورة التوبة، الآية 116.

وجميع الدراسات دلت بما لا يدع أي مجال للشك، على أن هناك لغة واحدة، في هذا العالم، هي لغة الإنسان، تختلف اختلافا جذريا عن جميع الوسائل الأخرى التي تتواصل بها سائر المخلوقات.

ويتم أمر الإنباء بالإشارة إلى الأشياء بمسمياتها وبعد الوصول إلى النتيجة، عودة إلى المقدمات لمعرفة مدى الارتباط بينهما وبين النتيجة، وهو ما نسميه بالرابطة التركيبية وهي تلك النظرة الشمولية التي نلقيها في نهاية البرهنة بتبيين مدى ارتباط المقدمات بالنتيجة.

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الاستفهام في قوله "ألم أقل لكم" تقريري بأن ذلك القول واقع لا محال والملائكة يعلمون وقوعه ولا ينكرونه.[70]

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

يأمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم، اعترافا بفضل الله عليه بالخلافة لتمثيل جلال الله مع تمام المعرفة منه سبحانه بأن (الإنسان) قد يخطأ أو يصيب، يصلح أو يفسد، كما أن المولى سبحانه قد امتحن الملائكة، كذلك فإنه يمتحن (الإنسان) في خلافته في الأرض.

المخلوقات جميعا سجدت للإنسان تكريما من الله وهنا تثار مسألة لابدّ من التوقف عندها هي كيف نسجد ولمن نسجد؟[71]

إن السجود الذي حصل للإنسان كان بأمر الله- والله سبحانه يأمرنا إلا بسجود واحد، سجودنا له حصرا- ذلك لأن مهمة الإنسان في الأرض هي

---

[70] المصدر السابق، ج1، ص419.

[71] أ. أحمد سنبل، الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، ص91.

من أصعب المهام. فالإنسان قد أعطي العقل في أرقى أشكاله، وهو مفتاح المعرفة التي يتم بواسطتها خضوع الطبيعة كلها للإنسان بالوسائل التي يخترعها ويبدعها.

ثم إن الإنسان مسؤول عن كل أعماله التي يقترفها شرا كانت أم خيرا، إنه يملك الإرادة الذاتية لإختيار الطريق.[72]

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾.

لماذا أبى إبليس السجود؟

إن إبليس ليس من الملائكة، فالملائكة "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"، إنما كان من الجن، والجن خلقوا من مارج من النار.

﴿يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[73].

قوله تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾

إن المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن (الزوج) مرادا به (الزوجة) لم ترد إلا في حق المؤمنين أي حين يكون الزوجان مؤمنين أما إذا كان أحدهما غير مؤمن فستستعمل لفضة امرأة، كامرأة فرعون، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة أبو لهب.

وللعلماء في ذلك تعليلات: منها ما قاله أبو القاسم السهيلي[74]:

---

[72] المرجع السابق، ص92.

[73] سورة البقرة الآية 35.

[74] أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف، ج2، ص113.

من أن ذلك التعبير هو بسبب كونهن لسن أزواج لهم في الآخرة، وإنما زواجهم في الدنيا فقط، ولذلك ناسب عدم ذكر الزوجية، وأبدل عنه بما يدل على الأنوثة فقط دون لفظ المشاكلة والمشابهة، وهو لفظ (امرأة).

ومنها أيضا قول السهيلي:"ولأن التزويج حلية شرعية، وهو من أمر الدين، فجردها – أي امرأة أبي لهب– من هذه الصفة كما جرد امرأة نوح وامرأة لوط فلم يقل: زوج نوح"

وأقوى منه تعليل الإمام ابن القيم – رحمه الله– : بأن هذا اللفظ– وهو الـــزوج– مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، وهذا غير متأت لغير المؤمنين حيث قطع الله سبحانه وتعالى المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين، قال تعالى: "لا يستوي أصحاب النـــار وأصحاب الجنة" [75]

وقطع –سبحانه – المقارنة بينهما في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان، ولا يتناكحان ولا يتولى أحدهما صاحبه فكما انقطعت الصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم ولذلـــك ورد في آية المواريث لفظ (الزوج) دون المرأة إيذانا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجيـــة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا تناسب، فلا يقـــع بينهما التوارث[76] .

ويرى السهيلي أن هذه القاعدة لم تنتقض إلا في قول زكريـــا عليـــه الســـلام: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [77] وقوله تعالى عن زوج إبراهيم عليه السلام﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾[78] وقد علل السهيلي ذلك بقوله: – إلا أن يكون مساق الكلام في ذكر الولادة والحمل وتحول ذلك، فيكون حينئذ لفظ (المرأة) لائقا بذلـــك الموطـــن،

---

[75] المصدر السابق، ج2، ص113.

[76] المصدر نفسه، ج2، ص113.

[77] سورة مريم، الآية 08.

[78] سورة الذاريات ، الآية 29.

كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾[79]، ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾[80] لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضي للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجا.[81]

وقوله﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني به ولا تأكلا من الشجرة لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل لأن القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا إليه ففي الحديث (من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) وقال ابن العربي سمعت الشاسي في مجلس النظر يقول"إذا قيل لا تقرب"(بفتح الراء) كان معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا قيل بضم الراء كان معناه لا تدن منه.

وقوله:﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من المعتدين وأشهر معاني الظلم في استعمال العرب هو الاعتداء. والاعتداء إما اعتداء على نهي الناهي إن كان المقصود من النهي الجزم بالترك وإما اعتداء على النفس والفضيلة إن كان المقصود من النهي عن الأكل من الشجرة بقاء فضيلة النعم لأدم في الجنة، فعلى الأول الظلم لأنفسهما بارتكاب غضب الله وعقابه وعلى الثاني الظلم لأنفسهما بحرماتها من دوام الكرامة.[82]

﴿أَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

الفاء عاطفة على قوله:﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾، والازلال جعل الغير زالا أي قائما به الزلل وهو كالزلق، والضمير في قولها﴿عَنْهَا ﴾ يجوز أن يعود إلى الشجرة لأنها أقرب، وقوله ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ تفريج عن الإزلال بناء على أن الضمير للشجرة والمراد من الموصول وصلته التعظيم. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ بالواو دون الفاء لأنه ليس بمتفرع عن

---

[79] سورة مريم، الآية 08.

[80] سورة الذاريات ، الآية 29.

[81] أحمد سنبل ، الحوار القرآني، ص114.

[82] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص432.

الإخراج بل هو متقدم عليه ولكن ذكر الإخراج قبل هذا لمناسبة سياق ما فعله الشيطان وغروره بآدم.[83]

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾

وقوله:﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[84].

خطاب لآدم وحواء وإبليس، والصحيح أنه لآدم وحواء، والمراد هما وذرياتهما ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[85].

ومعنى بعضكم لبعض والهبوط والنزول إلى الأرض مستقر، موضع استقرار ومتاع، تمتع بالعيش إلى حين يريد إلى يوم القيامة[86].

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[87].

معنى تلقى الكلمة: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها وهذه الكلمات هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[88]

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

كررت جملة قلنا اهبطوا فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالة على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول وقلنا اهبطوا وذلك قوله﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

---

[83] ينظر المصدر السابق، ج1، ص432.

[84] البقرة الآية 36.

[85] البقرة الآية 38.

[86] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص274.

[87] البقرة الآية 37.

[88] سورة الأعراف، الآية 23.

وقيل هو أمر ثان بالهبوط بأن أهبط آدم من الجنة إلى السماء الدنيا بالأمر الأول ثم أهبط من السماء الدنيا إلى الأرض، وقوله﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ شرط على شرط لأن إما شرط مركب من أن الشرطية، وما الزائدة دالة على تأكيد التعليق لأن أن بمجردها دالة على الشرط فلم يكن دخول ما الزائدة عليها كدخولها على (متى) و(أي) و(أين) و(أيان) و(ما).

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى) الآية هو في معنى العهد أخذه الله على آدم فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله وإن من أعرض عن هدى يأتي من الله فقد استوجب العذاب والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فيه تعريض بالمشركين من ذرية آدم وهو يعم من كذب بالمعجزات كلّها ومن جملتها القرآن، عطف على من الشرطية في قوله فمن تبع هداي. وقوله هم فيها خالدون بيان لمضمون قوله أصحاب النار فإن الصاحب هنا بمعنى الملازم .

﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[89].

إنّه المستقر الجديد، الجنة، لم يكن المستقر وقفا على آدم وحده، إنما كان له ولزوجه، ليحقق المقوم الآخر لقيام المجتمع. أرض ثم تكاثر في الأسرة من أجل مد المجتمع بأفواج جديدة من المواليد فالأسرة تؤكد البقاء وتحافظ عليه، وتقيم علاقات متشابكة ومختلفة في مستوياتها.

تباح في الجنة كل الثمار إلاّ شجرة واحدة هي المحذر الاقتراب منها،وتلك هي بداية الاختبار الصعب من أجل التهيئة لحياة جديدة على الأرض. مليئة بالاختبارات، بالخيرات، بالشرور.

الثمار كلها مباحة، ولكن لماذا تلك الشجرة لا تباح ثمارها؟

---

[89] البقرة الآية 39.

تبدأ لواعج النفس الأنانية تتطلع إلى هذا المحذر، أوَ ليس كل ممنوع مرغوبا على أن هـــذا ليس قاعدة لأنه إن لم تلتق الحاجة بالرغبة فلا معنى للرغبة.

هزم إبليس وانكسر أمام الله حين عصاه. وإبليس هذا لن ينسى الهزيمة، لابد مـــن أن يهيئ هزيمة لخصمه آدم بسبب انكساره، العلاقة بين آدم وإبليس هي علاقة صـــراع. والصراع قتال مستميت من أجل الوصول إلى هدف يعود بالفائدة لطرف واحد بينمـــا يقضي على الخصم بتجميده أو إزالته من الوجود أو الإيذاء.

إبليس يتحين الفرص للإيقاع بخصمه، الفرصة سانحة: الله سبحانه حظر على آدم الاقتراب من الشجرة. يزين إبليس لأدم الشجرة ويقربها من نفسه موسوسا فينســـى آدم العهد. فيجيء العقاب.

﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

بدأت المعاناة، النضال، الاختبارات التي لا تنتهي من النَّفَس الأول حتى النَّفَـــس الأخير.

شعر آدم بالمعصية، بالزلة، فيتوب الله عليه، ويؤكد له التكليف بأن يكـــون خليفتـــه في الأرض.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فأساس الخلافة في الأرض أبدا هو السعي الدائب في نور المولى سبحانه وأي بعـــد عن هذا النور إنما هو وقوع في الضلال[90]

يقول سيد قطب في تفسيره:" إن أبرز إيحاءات قصّة آدم هو القيمة الكبرى الـــتي يعطيها التطور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها، ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافتـــه علـــى أساسه..."[91]

---

[90] أ. أحمد سنبل، الحوار القرآني بين التبصير والتفسير، ص22.

[91] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص60.

حـــــوار مـــع إبـــلـــيـــس:

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ
قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[92]

وردت قصة آدم عليه السلام معنا في سورة البقرة وترد في سور الأعراف، الإسراء، الكهف، طه، ص. و بذلك يكون مجموع المواضع التي وردت فيها قصة الخلق هي سبعة مواضع، تتفاوت في قصرها أو طولها بحسب ما يقتضيه الحال.

الحوار في المقدمة يأتي تقريريا.

---

[92] سورة الحجر ، الآيات : 26-44

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

و نقف أمام قوله تعالى:

﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ﴾.

الجملة صارمة، فلا مجال للخوض في موضوع هو من اختصاص المولى سبحانه و غير مطلوب من العقل الإنساني الخوض فيه، فقد كان الأمر على الصورة التي أرادها الله، و لا مجال لمناقشة.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

نلاحظ أن الملائكة قد أهلتهم طبيعتهم لتنفيذ الأمر، حيث سجدوا جميعا بطاعة تامة و من غير جدل أو حوار ، فهم لا يعصون الله ما أمرهم .

أما إبليس فقد أبى لأنه طبيعته تختلف عن طبيعتهم، فقد خلق هو من نار بينما خلق الملائكة من نور.

حيث لم ينفذ إبليس الأمر يسأله المولى سبحانه:﴿ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

في هذه النقطة يأخذ الحوار شكلا تقريعيا، فقد جاء الأمر من الله بالسجود لآدم و لا مجال لعصيان خصوصا و أن آدم عليه السلام قد شرف بالنفخة العلوية التي تجاهلها إبليس و تغافل عنها، فلم يذكرها في معرض إجابته عن الإنسان التي منعته عن السجود فقد ذكر الصلصال و الحمأ، و لم يذكر النفخة العلوية، تشامخا و غرورا و صلفا.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

نلاحظ من ظاهر الحوار و من أغواره، مدى التعنيف الذي يلقاه إبليس ، فكأن الحوار يتحول إلى سياط من لهب تناسب طبيعة إبليس النارية ، تلاحق إبليس و هو يؤمر بالخروج من المنزلة التي كان عليها في الملأ الأعلى ، فقد أصبح بعد العصيان مرجوما ملاحقا باللعنة المتوترة عليه إلى يوم الدين.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

من طيات الحوار نلمس نبرة الرجاء و الذل متبدية في الكلمات على لسان إبليس و هو يعترف على الرغم من غطرسته و تعاليه أن له ربا ، سيدا ، مدبرا و الله سبحانه و تعالى يعرف مسبقا ما سيفعله إبليس خلال النظرة إلى يوم البعث ،*فهو – إبليس– لم يندم على خطيئته التي اقترف، إنما ينضر أمر يعلمه الله.

فأجيب إبليس على طلبه استدراجا و إمهالا من المولى العالم بالسرائر.

و الآن و بعد أن تمكن إبليس من النظرة و ظفر يلوح بما أضمر مؤكدا:

﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

إذن فقد طلب إبليس النظرة ليس عزما على التوبة من ذنبه الذي اقترف، و إنما توعدا بالانتقام من آدم و ذريته بإضلالهم جميعهم، بأن يزين لهم قبيح أعمالهم.

يجيء جواب الله جل جلاله:

﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

تلك سنة الله و عباد الله المخلصين ليس لإبليس عليهم من سلطان فهم في حمـــى الرحمان، معلقة قلوبهم و جوارحهم جميعا به سبحانه ، فسلطان إبليس منحصر بـــأولئك الذين يغويهم بعد أن ضعفت نفوسهم .[93]

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُـــلِّ بَـابٍ مِنْهُـمْ جُـزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

---

[93] ينظر:أحمد سنبل.الحوار القرآني.ص.276

حـــوار هـابـيـل مـع أخـيه قـابـيـل :

قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ

قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ

قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي

فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[94]

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، و نقضهم المواثيق و العهود كظلم ابن آدم لأخيه. و المعنى: إن همّ هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء ، و قتل قابيل هابيل ، و الشر قديم .[95]

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

---

[94] سورة المائدة ، الآيات : 27-32

[95] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص133

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يتلو على المسلمين نبأ ابني آدم، بعد أن وضع أمام المسلمين قصة موسى و بني إسرائيل. وهذا الذي يتلوه إنما هو حق، وقد وقع فعلا. وهو يدعو إلى شريعة حقة تردع وتعدل .

فقد تقبل الله قربانا من أحد الأخوين و لم يتقبله من الأخر.

وكان سبب قبول قربان أحدهما دون الأخر أن قابيل لم يكن زكي القلب وقرب بشرّ ماله و أخيه، و قرب هابيل بخير ماله و أشرفه و أضمر الرضا بحكم الله تعالى .

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ في الكلام حذف التقدير، و قال[96] الذي لم يتقبل منه للذي يتقبل منه لأقتلنك، فقال له لم تقتلني،

قال: إنه تقبل قربانك و لم يتقبل قرباني قال له وما ذنبي.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

ذلك الإعصار العاتي، و التصميم على القتل يقابلان برقة القول، و الأخ بقوله إنما ينبه أخاه إلى طريق الهدى بعدما ضللته أمواج الحسد و الغضب. متابعا قوله:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

لئن بسطت: اللام للقسم و جوابه ما أنا بباسط ولا يقع ما جوابا للشطر و معناه لئن مددت إلى يدك .

﴿لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾

قال أهل التفسير أن القتل على سبيل المدافعة لم يكن مباحا في ذلك الوقت و كان الصبر هو المأمور به[97].

---

[96] الطبرسي، البيان في تفسير القرآن، لبنان -بيروت، منشورات ذاكرة الحياة ، د.ط، ج7،6 ص72.

[97] المصدر نفسه ، مجلد 2، ج6 ،7، ص74.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

نفس مؤمنة تقية تذكر بأن القتل لا يدور بخلدهـــا. ليـــس عجـــزا أو خوفـــا، أو خنوعا، لكن خوفا من رب العالمين.

لقد حاول الأخ بنية إلى الجريمة التي ستقع ، وإلى العقاب المنتظر ، فكان الرد فعلا آثما :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لم يقل سبحانه (فقتل أخاه) و إنما مهد بكلمة ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ بما يشـــير أعمـــاق الضمير الإنساني.

إن عبارة (فطوعت) تحمل استنكارا ، و استغرابا ، مما أقدم عليه الأخ الحـــاقد ، فبعد التذكير بمخافة الله ، و بالظلم الذي سيقع ، و بعد الرقة كلها التي قابلت الظلـــم، وقعت الجريمة فقتل الأخ أخاه [98].

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

أي صار ممن خسر في الدنيا و الآخرة ، و هذه خسارة فادحة مادام الإنسان منّا بحاجـــة إلى الآخرين ، يتفاعل معهم ، و يتعاون للتلاؤم مع قوى الطبيعة .

و خسر آخرته بالجريمة التي ارتكبها ، فظلم نفسه بذلك كله .

و إذا به، و على مرأى من ناظري أخيه جثة هامدة لا حياة فيها .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

لقد دله الغراب كيف يدفن أخاه الذي قتله ، فقلده وواراه.

---

[98] ينظر أحمد سنبل الحوار القرآني ، ص 53.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

إنها دعوة الإسلام إلى السلام. دعوة مفتوحة إلى الحياة تتضمن بين ثناياها أن نعيش حياتنا في سباق شريف يسعى إلى العمران البشري، في أي زمان، في أي مكان.[99]

[99] ينظر المرجع نفسه، ص 54.

حوارات الله مع الأنبياء عليهم السلام:

حوار الله مع إبراهيم :

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُ[100] رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[101]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾

﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[102].

---

[100] سورة البقرة، الآيات 124 - 126.

[101] سورة البقرة، الآيات 131 - 132

[102] سورة البقرة، الآية 260.

في هذا الحوار لابد من العودة إلى أعماق التاريخ، إلى سيدنا إبراهيم الخليل. و الصراع الذي دار بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة.

لأنّ أهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق- عليهما السلام- ويعتزون بنسبهم إليه. ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والدين والجنة.

وإن قريشا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل- عليه السلام- وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام، وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها.

لذلك ادعت اليهود والنصارى أنّه (لن يدخل إلا من كان هودا أو نصارى) مما جعلهم يقولون للمسلمين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[103].

في الحوار الذي بين أيدينا تقرر الحقائق ناصعة، واضحة، في حوارية بين المولى سبحانه الذي يعرض لرسوله الكريم ما كان من امتحان لسيدنا إبراهيم بأوامر أطاعها ووفى بها فاستحق البشرى بأن يكون قدوة للناس وهاديا وإماما إلى طريق الله سبحانه.﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[104].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور:"والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة والبلاء الاختبار... والمراد هنا التكليف لأنّ الله كلفه بأوامر ونواه إما من الفضائل والآداب وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به" .

وهذا يدل على أنّ إبراهيم أوحى إليه نبوته لتتهيأ نفسه لتلقى الشريعة فلما امتثل ما أمر به أوحى إليه بالرسالة وهي في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فتكون جملة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بدل بعض من جملة وإذ

---

[103] سورة البقرة، الآية 35.

[104] سورة البقرة الآية 124.

ابتلى، ويجوز أن يكون الابتلاء هو الوحي بالرسالة ويكون قوله أني جاعلك للناس إماما تفسيرا لإبتلى.

والإمام الرسول والقدوة"[105].

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور كذلك:"وتقديم المفعول وهو لفظ إبراهيم لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل وإذا ابتلى الله إبراهيم".[106]

ويقول كذلك في قوله﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:"جيء فيه بالفاء للدلالة على الفوز في الامتثال وذلك من شدة العزم. والإتمام في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع".[107]

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

لقد استحق إبراهيم البشرى في أن يكون إماما، و قدوة ، يسوق الناس إلى الخير فيتبعونه مطمئنين. وتلمع في ذاكرة إبراهيم فكرة، فيسأل إبراهيم عليه السلام ولكأنه يرجو ذلك :

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

وجيء الرد !

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

رد حاسم مختصر، يضع منهجا واضحا يصح في كل عهد وكل أرض.

إن الإمامة سواء كانت إمامة رسالة أو إمامة خلافة سياسية، أو إمامة صلاة، أو أي معنى من معاني القيادة إنما هي لمن يستحقها بالعمل الدؤوب والطاعة المعلقة وليس لأحد سوى للّه سبحانه. هذه الطاعة طريقها شائك لأنها تلجم النفس عن تحقيق

---

[105] محمد الطاهر بن عاشور،"تفسير التنوير والتحرير"، ج1، ص701.

[106] المصدر نفسه،ج1، ص702.

[107] المصدر نفسه، ج1، ص703.

بعض الشهوات الدنيوية، قد تبدو للإنسان العادي مطلبا وأمنية في حياته الدنيا، ولكن الدنيا والآخرة، والتوفيق بينهما من أشق الأمور وأصعبها. ثم إن الإمامة بعيدة عن الظلم، ظلم النفس لذاتها حين تبتعد عن جادة الصواب والإيمان بالله فتتخذ له شريكا. كما أن ظالم نفسه غالبا ما يتعدى أمره لظلم غيره، وظلم الغير هو أقسى أنواع الظلم.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره لقوله تعالى(لا ينال عهدي الظالمين) استجابة مطوية بإيجاز وبيانٍ للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما لأن حكم أحد الذين يثبت نقيضه للأخر على طريقة الإيجاز... وينال مضارع نال نيلا بالياء إذا أصاب شيئا والتحق به أي لا يصيب عهدي الظالمين أي لا يشملهم، فالعهد هذا بمعنى الوعد المؤكد.؟[108]

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

لقد أمر الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام- بتطهير البيت ليكون للناس أمنا وهذا البيت لا يورث إليهما بالنسب.

و الطائفون والعاكفون والراكعون والساجدون أصناف المتعبدين في البيت و لم يعطف السجود على الركع لأن الوصفين متلازمان.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

يجيء الحوار هنا سلسا على شكل دعاء واع، يمس شغاف القلب، ويؤكد معنى الوراثة، على الرغم من أن سيدنا إبراهيم قد عرف الرّد الذي تلقاه عن ربه حيث قال له﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فهو يرجو ربه بدعاء خاشع أن يحقق الأمن والأمان للبيت، وأن يرزق أهله من الثمرات، والأهل هنا ليسوا أي أهل، إنما هم الذين أمنوا بالله واليوم الآخر، دعاء ليس فيه أنانية أو أثرة. دعاء خالص الله فيجيبه المولى سبحانه- وهو

---

[108] المصدر السابق، ج1، ص706.

الخبير العارف بمدى التأدب الذي وصل إليه سيدنا إبراهيم بعد الدرس الـــذي تلقـــاه- فيقول سبحانه:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

لقد سكت إبراهيم عليه السلام عن الذين كفروا فأجابه المولى سبحانه بأن مـــن كفر فسيوسع له الله في رزقه في حياته الدنيا بعض الشيء ثم يدفعه إلى النار.

يفسر الشيخ محمد الطاهر بن عاشـــور هـــذه الآيـــة قـــائلا:" والاضطـــرار في الأصل الالتجاء وهو بوزن افتعل مطاوع أخره صيره ذا ضرورة أي حاجة، فـــالأصل أن يكون اضطر قاصرا لأن أصل المطاوعة عدم التعدي ولكن الاستعمال جاء على تعديته إلى مفعول وهو استعمال فصيح غير جار على قياس يقال اضطره إلى كذا أي لجـــأ إليـــه، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة لقمان ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[109]

وقوله:﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تذييل والواو للاعتراض أو للحال والخـــبر محـــذوف هـــو المخصوص بالذم وتقديره هي "[110].

ويرفع إبراهيم قواعد البيت وليس له هدف إلا في أن يتقبل الله منه عمله، ويكون له العون في الهداية للإسلام، ويرجو إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يـــرزق ذريتهمـــا مـــن الثمرات، ويرزقهم من الإيمان و أن يبين لهم مناسكهم وعبادتهم، وأن يتـــوب عليهـــم وأن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة".

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْـــلِمَيْنِ لَـــكَ وَمِـــنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيـــمُ

---

[109] سورة لقمان، الآية 24.

[110] المصدر السابق، ج1، ص717.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [111].

جاء في تفسير التحرير والتنوير وجملة ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مقول قول محذوف يقدر حالا من يرفع إبراهيم وهذا القول من كلام إبراهيم لأنه الذي يناسبه الدعاء لذريته لأن إسماعيل كان حينئذ صغيرا ثم يواصل تفسيره فيقول:

و العدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله:"وإذ يرفع" حتى كان المتكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الإيغال.

وجملة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزئي هذه الجملة والإتيان بضمير الفعل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم .

هذا الدعاء يختلف تماما عما سبقه من دعاء، فحين طلب إبراهيم الوراثة لبنيه أجابه ربه:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فلا قيادة عن طريق الوراثة بينما حين يطلب في دعائه هذا الإيمان فإن الله تعالى يلبي طلبه ويرسل محمدا (صلى الله عليه وسلم) في أمته المسلمة، تلك الأمة التي لا يكون فيها أية وراثة إلا لدين الله فملة إبراهيم هي الإسلام، الخالص الذي لا يعزف عنه إلا من ظلم نفسه[112].

ثم نحن أمام حوار واضح جلي مختصر:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

إنه تسليم كامل لرب العالمين وخضوع مطلق للمولى سبحانه، يزرع الطمأنينة في أعماق النفس فيجعلها تحس طعم الإيمان وهو يتدفق صافيا رقراقا من قلب يضح دماء

---

[111] سورة البقرة، الآية 129.

[112] ينظر : المصدر السابق، ج1 ، ص732

مسلمة, هذه النفس تعترف بأن الله هو رب إبراهيم ورب الناس أجمعين. ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

و قبل أن يلفظ يعقوب أنفاسه الأخيرة حين يحضره الموت يخاطب بنيه ليطمئن عن النهج الذي سيسيرون عليه من بعده " ما تعبدون من بعدي".

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[113].

قبل أن يودع أحدنا الحياة الدنيا، يحرص على الأمور التي تهمه فيوصي بها ورثته ويسأل عنها، لكن الأمر هنا يختلف، فيعقوب وهو في سكرات الموت لا يحرص على شيء من الحياة الدنيا إلا العقيدة، فهو يطمئن عن الطريق الذي سيسلكه أبناؤه من بعده، وهذا الطريق هو العقيدة. إنها العقيدة.. أجل العقيدة.

حوار الله مع عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

---

[113] سورة البقرة، الآية 133.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[114].

في هذه الآيات البينات ينبض الحوار لكأنه يقع أمامنا، على مرأى العين ومسمع الأذن، يسري في أعماقنا بخشوع لا حد له ، ليترك أثره العميق الذي يهز كياننا.نقف في إجلال مع الواقفين، نتمثل ذلك نقف في حضرة المولى سبحانه:

---

[114] سورة المائدة، الآيات من 109 - 119.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ .

يوم الحشر العظيم يسأل الله رسله الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام والأزمنة:

﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾

و أما الرسل فجوابهم:

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

نلاحظ في الكلمات إطراقا، وتأدبا، والتزاما بحدود المعرفة التي منحت للرسل .

إن هذه البداية الحوارية شملت جميع الرسل.أما عيسى عليه السلام فهو المعني بالحوار المتبقي في هذه السورة، لأن قومه قد فتنوا فيه، وغام الجو حوله بالشبهات حول ذاته، ونشأته ، وحياته والنهاية التي آل إليها وكذلك ولادته، لذلك ينحصر الحوار بين المولى سبحانه وعيسى عليه السلام ابن مريم .

وإذا عدنا للنص القرآني الحواري فإنّنا نلاحظ الإلحاح في ذكر عيسى عليه السلام أنه ابن السيدة مريم، وذلك في أربعة مواضع ويذكره الله بنعمه عليه:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾

1- إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا.

2- وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

3- وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فيكون طيرا بإذني.

4- وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني.

5- وإذ تخرج الموتى بإذني.

6- وإذ كففت بين إسرائيل عنك إذ جئتم بالبينات.

7- وإذ أوحيت إلى الحواريين إن امنوا بي وبرسولي.

فالله سبحانه يذكر عيسى عليه السلام بنعمه عليه وعلى والدته، ويعيد إلى ذاكرته المعجزات التي كان يجريها بإذن الله ليصدقه الناس يتحداهم بها بالأسلوب نفسه الـــذي كانوا يتخذونه. فكذبه بعضهم، وفتن به بعضهم الآخر، وألهه بعض ثالث.

وإذا عدنا للحوار الذي رقمناه فإننا نجد تكرار كلمة"بإذني" مرات عديـــدة، ذلـــك ليعلم الله خلقه، خصوصا الذين فتنوا بعيسى عليه السلام، والذيـــن ألهـــوه، ليعلمهـــم أن كل شئ إنما وقع بإذن الله.

و ها هم يطلبون على صيغة سؤال:

﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُـــنَزِّلَ عَلَيْنَـــا مَـــائِدَةً مِـــنَ السَّمَاءِ﴾. أرادوا أن يزدادوا يقينا بنبوة عيسى وتطمئن قلوبهم بذلك، فسألوا نزول مائدة من السماء بدعاء خاص من عيسى حتى تكون الواقعة برهانـــا تجريبيـــا علـــى صـــدق نبوته.[115]

فيرد عليهم بأدب الأنبياء مع الناس، ويتأدب الرسل مع رب العالمين﴿اتَّقُـــوا اللَّـــهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فيؤكدون الطلب بقولهم:

﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَعْلَـــمَ أَنْ قَـــدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وعيسى عليه السلام يعلم ويوقن أن أيـــة معجزة يقوم بها إنما تتم بإذنه وقدرته، فيخلص الدعاء إلى ربه:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

فاستجاب الله عزّ وجلّ لعيسى، ولكن:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

---

[115] ينظر: أحمد سنبل، الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، ص58.

إن الله سينزل المائدة، ولكن من يكفر بعد هذه الخارقة فإن الله سبحانه سينفذ فيه عذابا لا مثيل له، لم يذقه أحد من قبل، والعذاب هنا يجئ متناسبا مع الخارقة، فمن أراد الإيمان فإنه يؤمن بعد إعجاز واحد أو برهان أو أية من آيات الله.[116]

ثم يعود بنا الحوار إلى رب العالمين سبحانه ونسبه عيسى عليه السلام:

إذ قال الله:يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس.. فهو العليم الخبير.

الحوار رهيب، يسير على صورة استجواب، يجري أمام أنظار العالمين فان كان سيدنا عيسى إلها فالإله لا يستجوب، والاستجواب هنا يثير رهبة في أعماق النفس البشرية، فالمستجوب هو رسول من رسل المولى سبحانه؟

لا جواب إلا الخضوع المطلق لله وحدة: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

ثم يتمم واجف القلب مخاطبا ربه: ﴿إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ثم إننا نلاحظ البعد النفسي الذي ينبض به الحوار، فالتهمه كبيرة، هي إدعاء الربوبية والألوهية-لذلك يدفعها عيسى عليه السلام عن نفسه مؤكدا أن الأمر كله لم يلمح بذهنه إطلاقا، فالله يعلم ما في نفسه، المنيب، الخاضع ، الخاشع.

ثم تأكيد واجف مرة أخرى لدفع التهمة:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

إجابة واضحة، محددة، الحوار هنا واجف، ترتعش كلماته، خاشع أمام الاستجواب الرهيب، ثم إن الله سبحانه لم يسال عبده عيسى عليه السلام إلا سؤالا واحدا قصيرا، مركزا.لكننا نلمح العبارات تأتي على لسان عيسى، مرتعدة، واجفة، متلاحقة ، تجمع كل أساليب دفع التهمة الكبيرة، وعيسى عليه السلام يتابع بتأكيداته

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - كلية الآداب واللغات - مكتبة

116 ينظر المرجع السابق، ص59.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ومما يلفت النظر في الحوار، أننا لم نسمع كلمة واحدة من أولئك الذين افتروا على سيدنا عيسى، وبعد التقصي كله، والاستجواب جمعية تترك كلمة الحكم النهائي في هذا الموقف الرهيب لله وحده:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

حوار الله مع موسى عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[117].

---

[117] سورة المائدة، الآيات: 20 - 26.

نحن أمام حوار بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وقد كثرت الحـــوارات في القرآن الكريم مع بني إسرائيل، وتناثرت في أماكن متفرقة لقصة واحدة، في كل موقـــع يتناول منها القرآن ما تناسق وسياق السورة، أما أسباب تكرار الحوارات مع بني إسرائيل فتعود إلى:

- أنهم كانوا حربا على المسلمين، منذ اليوم الأول لظهور الإسلام.
- تبنيهم المنافقين في المدينة المنورة وإعانتهم ليكيدوا للإسلام.
- تحريضهم المشركين، وتأمرهم معهم على المسلمين.
- إثارتهم الشكوك في العقيدة الإسلامية.

كل ذلك حدث قبل أن يعلنوها حربا صريحة. صارخة علـــى المســـلمين، أمـــا تصرفاتهم فقد كانت أشبه بالحرب النفسية تلك الحرب التي تنتشـــر في جســـم الأمـــة فتهدّه وتضعفه. لكن الأمة الإسلامية لم تكن في يوم مضى هشـــيما لتـــذروه الريـــاح، رياح التشكيك أو تحرقه نار الكيد والعداء المبطن.

ومن جهة أخرى فإن بني إسرائيل عبر تاريخهم الطويل نقضوا عهد الله وميثاقه عدة مرات فانعكس ذلك على أخلاقهم وحياتهم، فقســـت قلوبهـــم وتربصـــوا بالإســـلام والمسلمين، وما الغزو اليوم على البلاد الإسلامية إلا دليل قاطع على ذلك.

ومن أجل ذلك لابد من التبصير بهوية هؤلاء اليهود، كما ولابد من معرفة الطرق الملتوية والمزالق التي يستعملونها لتجنبها. وكي لا يكون حجر عثرة في طريق المسلمين. فالعاقل من يتبصر ويستفيد من التجارب.

و الحوار- هنا- إنّما جاء ليعرض أمام الأمة المسلمة تلك الإلتواءات التي مارسها أولئك القوم. الحوار عرض رائع للتبصر وأخذ العبرة. الأمر الذي يتطلـــب مـــن الأمـــة الإسلامية أن تكون واعية متمسكة بعقيدتها، فالطريق طويلة تمتد إلى قيام الساعة. فهذه الأمة ولدت لتكون عملاقة قائدة لجميع الأمم ودينها خاتمة لكل الأديان.

نحن في هذه الحوارات مع موسى عليه السلام، وقد خبر قومه الذين صبر عليهم في مواقف عديدة، نذكر منها على سبيل العد لا الحصر:

1- حين أخرجهم من أرض مصر، وحررهم من ذلهم وهوانهم وفرق لهم البحر بسلطان الله، وأغرق فرعون وجنوده، فيمرون على قوم يعبدون الأصنام فيطلبون من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلاها كإله أولئك القوم.

2- حين غاب عنهم في ميقاته مع ربه، يتخذ السامري من الحلي عجلا له خوار فيقول اليهود إن العجل هو إله موسى.

3- حين فجر لهم ينابيع الماء من جوف الصحراء، وأنزل لهم المن والسلوى بإذن الله فيكون ذلك طعامهم، فيطلبون البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل.

4 - حين أمرهم بذبح البقرة فأجلوا التنفيذ وماطلوا في الطاعة.

5- حين عاد من ميقات ربه وبرفقته الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده فأبوا إعطاء الميثاق.

في هذا الحوار نجد سيدنا موسى عليه السلام يشفق على قومه من ترددهم ونكوصهم، وهو يدعوهم لدخول الأرض المقدسة، فالله قد وعدهم أن يجعل فيهم أنبياء وملوكا.

﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فقد أتاهم الله المن والسلوى، والحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا وكذلك نجاهم من فرعون وخصهم بالغمام.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

إن النصر مؤكد من الله، لكنهم نكصوا العهود ومشوا في مزالق كثيرة، فإنّ ارتدوا هذه المرة بعد عهدهم فالخسران واقع.

ما هي حجتهم كي لا يخوضوا هذه الحرب؟

قالوا: ﴿يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

إن أي نصر، لا يمكن أن يتحقق من غير إيمان يترسخ في أعماق النفوس نضحي فيه بالغالي والرخيص لإعلاء كلمة الله.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

عبارة حوارية تدل على قانون حربي. الإقدام والاقتحام.

النصر دائما لمن يبدأ بالضربة الأولى التي تزعزع وتهد العدو فيؤول إلى ذعر متخبطا في مواجهة عشوائية.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

لكن الرجلان يخاطبان قوما لا إيمان في قلوبهم فيقولون:﴿ يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ ضعف وجبن، ثم ماذا بعده؟﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

يشعر موسى عليه السلام بألم يسربله بعدما انفض عنه قومه وتركوه على أبواب الأرض المقدسة. لا ملجأ إلا إلى الله فيناجيه حزينا ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فاستجاب الله لنبيه وأوقع الجزاء فيهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

لقد نكصوا عهدهم، فحرم الله عليهم الأرض التي وعدهم بها. فهم في هذه الصحراء سوف يخوضون حربا أقسى من أية حرب... إنه التيه.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

فلا شيء أقسى من أن يعيش الإنسان التيه في النفس وفي الطريق.

و تأمل قوله تعالى في سورة المائدة :﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[118] .

إن (ما) في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ زائدة، وجاءت زيادتها لإفادة الحصر، فكأنه قال:"ما لعناهم إلا نقضهم ميثاقهم".[119]

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ تجده بيانا لقسوة قلوبهم؟ لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه[120]، والتعبير عن تسيير قلوبهم إلى القسوة قبله، وعن النسيان بعده، جاء بالماضي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ .

﴿وَنَسُوا﴾ لأنهما قد حصلا، فلا يتجددان، فإذا حصلت القسوة والنسيان فلا يزولان إلا بمرقق وبمذكر[121]

وتأمل قوله ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ فهو من البلاغة بمنزلة لا يمكن أن يبلغها فصيح بليغ مفهوم فهو عبر بالفعل المضارع "تزال" الذي يدل على التجدد والاستمرار، ثم أدخل عليه (ال) التي تدل على أن الخيانة سجية فيهم وطبع، فصارت جزءا من مقومات حياتهم كالطعام والشراب لهم ولغيرهم، فالمعنى أن الله ما لعن اليهود إلا بنقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم منذ عهد موسى عليه السلام، و صير قلوبهم قاسية لا تشعر بذنب، و لا يردهما زاجر. يبدلون كلام الله و يمتهنون الرذائل، حتى صار من طبعهم امتهان الخيانة دون خوف و لا وجل.

والله أكبر ما أبلغ كلامه !!!

---

[118] سورة المائدة الآية 13.

[119] ينظر: صالح بن حسين العابد، نظرات لغوية في القرآن الكريم، ص107.

[120] الزمخشري الكشاف، ج1، ص600.

[121] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج6، ص143.

حوارات الأنبياء مع أقوامهم :

إبراهيم عليه السلام يحاور أحد الملوك :

قضية الحياة والموت:

الآيات تتناول هذا الموضوع في حوارية نخلص في نهاية كل آية منها إلى قصة متكاملة الجوانب. ففي الآية الأولى تبدأ المحاورة بين سيدنا إبراهيم وأحد الملوك في زمانه، فيجادله الملك في الله، فيعرض القرآن الكريم أمام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) صورة الحوار.

وكم نحن بحاجة إلى دراسة هذه الحوارية، فهذا النموذج من الناس يتكرر في كل زمان الأمر الذي يتطلب منا التمرس بالمعرفة وبأصول الحوار لإقناع الآخرين.

تثار في الحوار مشكلة الموت وقد تصدى الإسلام لمشكلة الموت، من خلال نظرة كلية شاملة لوحدانية الله، والإقرار بعجز الإنسان عن فهم علل الأشياء وسيرها، ويتجلى الموت في القرآن الكريم، بكونه فعلا إلهيا محضا، فالله هو المحي وهو المميت، وهو وحده يملك علم الغيب، كما ربط القرآن الكريم، مفهوم الحياة والموت معا، بفعل إلهي واحد، وقد ورد هذا التأكيد والربط في أكثر من سورة، وكلها تعيد طرفي الحقيقة إلى مصدر واحد، وهذا التلازم الواضح يبين أن الله وحده، هو المصدر الأول والأخير في تقرير مصير الإنسان، فهو الكل المطلق مبدأ كل وجود، وإليه ينتهي كل وجود. ولا يخرج عن ذلك الزمن الذي كان، والزمن الذي سيكون. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[122].

فهو صاحب الحق، وكامل الوحدانية في أي قرار، لأنّ ﴿اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[123].

---

[122] سورة البقرة الآية 28.

[123] سورة التوبة، الآية 116.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.[124]

الجدل هنا عقيم، لأن الأمر الذي يجادل فيه الملك هو مسألة ينفرد بها الخالق سبحانه. فحقيقة الموت والحياة نحن- كبشر- لا نستطيع إدراكها لأنها تعتبر من أسرار المولى سبحانه. مما جعل سيدنا إبراهيم يقطع الحوار في مجال هذه القضية ليستأنفه في قضية جزئية مرئية، تعتمد على الاستقراء والفحص والتدقيق الذي يجعلنا نستطيع الانتقال إلى قانون ثابت يصلح في كل زمان ومكان، وهي أن الإنسان أعجز من أن يسيطر على ظاهرة بسيطة، الأمر الذي يثبت أن هذا الإنسان نفسه -الملك أو غيره- لا يملك القدرة على الإحياء والإماتة إلا بأمر الله. فيقول سيدنا إبراهيم من باب التحدي المعرفي:﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[125].

حقيقة شروق الشمس وغروبها ندركها تماما، وهي متكررة يوميا على مرأى من كل عين[126].

لا جواب من الملك- عجز مطبق- خواء أمام القدرة الإلهية.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[127] ؛الدمار صارخ في جنبات القرية والموت يكمن في ظاهرها وباطنها.. خراب.. خواء.

الأمر الذي يجعل الرجل الذي مر على القرية لا يتساءل: كيف حدث هذا الموت للقرية؟ وإنما يتعجب: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيأتيه الجواب واقعا حيث يميته الله مئة عام، ثم يبعثه ليسأل: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[128]

---

[124] سورة البقرة، الآية 258.

[125] سورة البقرة، الآية 258.

[126] أحمد سنبل ، الحوار القرآني ، ص91

[127] سورة البقرة، الآية 258.

[128] سورة البقرة، الآية 259.

إجابة ليست حاسمة، إنما هي تقديرية، ففي الموت لا إحساس ولا وعي بالحياة. فيأتيه الجواب:- بل لبثت مئة عام.

وتأتي البراهين الحسية الاستقرائية للوقائع من حوله:

﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾[129].

فالطعام لم يتغير، كذلك الشراب لم يمسه أي تغير بفعل السنين التي مرت، أمّا الحمار فقد مات مئة عام مما جعل عظامه تتعرى وتتفسخ، وقد رأى الرجل بعينه وبالتجربة الحسية كيف ترتب العظام من جديد إلى بعضها ثم تكسى لحما، وترد الحياة إليها.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[130].

ثم في الآية الثالثة نتلوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾[131].

التساؤل يجيء هنا على صيغة مغايرة للذي سبقه، حيث كان على شكل استغراب: أني يحيي هذه الله بعد موتها؟ بينما هنا يعترف سيدنا إبراهيم أنّ الله قادر على الموت والحياة، ولكن وهو المؤمن الخاشع الأواب، خليل الرحمن، يختلج قلبه بالشوق لمعرفة قدرة الله في بث الحياة في الموت.

لم يأتي طلبه عن شك أو تزعزع إيمان، وإنما هو التطلع إلى معرفة السر إلى معرفة واقعية مدركة عن طريق الحواس. والإدراك في علم النفس إنما هو معرفتنا للعالم الخارجي والأشياء التي يتألف منها بواسطة الحواس.

---

[129] سورة البقرة، الآية 259.

[130] سورة البقرة، الآية 259.

[131] سورة البقرة، الآية 260.

وهذه المعرفة الإدراكية بواسطتها نحقق المعرفة النظرية التي تعرف طبيعة الأشـــياء التي يتألف منها بواسطة الحواس.

فما يطلبه إبراهيم عليه السلام إنما هو من باب المعرفة النظرية، أي العلم بطبيعـــة الشيء ذاته. فشوقه عليه السلام إنما هو الذي يسوقه ليرى بعينه الله وهو يقـــوم بعمليـــة الخلق. ألا هي إحياء الموتى، فهو عارف أنّ الله سبحانه هو وحده الخالق.

كما أن الله سبحانه يعرف ما في نفس نبيّه من صفاء ونقاء.

وقد استجاب المولى سبحانه لهذه الرغبة فجعله هو نفسه- إبراهيم- يمارس هذه التجربـــة بشكل مباشر.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُـنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[132].

إنه الله مبدأ كل وجود، مالك الملك، عالم الغيب، لا يحيط بشيء من علمه إلا ما شـــاء، هو وحده العليم الخبير، بيده مفاتيح الغيب، هو الله.

حوار إبراهيم مع قومه :

هذا طرف من قصة إبراهيم مع قومه. إنّه يسألهم عمن يعبدونه ليبين لهم أن هـــذا المعبود لا ينفع ولا يضر.

قال سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

---

[132] سورة البقرة، الآية 260.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [133].

قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾

قال لهم: هذه الأصنام التي تعبدونها, وقد اتخذتموها أربابا من دون الله هل لهم سمع يسمعونكم به إذا دعوتم؟ وهل لهم قدرة على النفع والضر فتعبدونها طمعا في النفع وخوفا من الضر.

قالوا له: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. وهنا يظهر التقليد الأعمى في فكرة الأصنام، مجرد أنّ أباؤهم كانوا يفعلون ذلك.

والتقليد حجة ضعيفة، استدرجهم إليها إبراهيم في حوارهم معهم، ومشركو مكة يسمعون ويرقبون الأحداث إلى أي مصير تنتهي، فالقضية قضيتهم.

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام الحوار بعد أن استدرجهم إلى الاعتراف بعجز آلهتهم:أرأيتم هذه الأصنام التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون. إنهم عدوّ لي وإلى رب العالمين.

وقوله: ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ تصوير للمسألة ليعلموا أنه نصحهم بما نصح به نفسه.

لأن رب العالمين هو الذي خلقني، وهو الذي خلق كل شيء، وهداني، وهو القادر على أن يؤتي كل نفس هداها، وهو يطعمني ويسقين، ويطعم كل شيء ويسقيه، ويشفيني إذا مرضت، ويشفي كل مريض، وهو الذي يميتني ويحيني، ويميت كل حيّ ويحييه، والذي أطمع أن يغفر لي خطاياي يوم الدين.[134]

وذلك لأنه "الله القادر على كل شيء, المالك لكل شيء، فليس ما تدعونهم – وقد علمتم شأنهم – مثله، وليس كمثله شيء.

---

[133] سورة الشعراء، الآيات 69 – 82.

[134] محمد المطعني، خصائص التفسير القرآني، ص 439-440.

أفي هذا التوجيه قسر للعقول؟ أو فيه إلغاء لفكر الإنسان الحر، مهما كان موقفه من العقيدة التي يدعوا إليها الداعي.

فليقارنوا بين من دعوهم آلهة. وبين الإله الحق وليختاروا لأنفسهم ما يحلو.[135]

طريقتان للخطاب الحواري:

يخاطب القرآن هؤلاء الأقوام خطابا مباشرا، ومرة يسوق لهم الحقائق على لسان الأنبياء والرسل.

الخطاب المباشر. قال الله تعالى﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[136].

لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية في إبطال عقيدة الأصنام لكان القرآن قد أبطلها من أسسها بحيث لم تقم لها حجة بعد. لا عند عابديها ولا عند غيرهم من الناس ولما وسع المخالفين – لو أنصفوا– إلا التسليم والإذعان، عرض واضح ودليل قاطع[137].

* استدراج يؤدي إلى العجز:

فقد نصبت الآية التماثيل والأصنام أمام النظارة، لافتة أنظار أتباعها إليها وقد حضرت في الذهن والخيال أشكالا جامدة صماء خالية من كل سبب للحياة أحضرت– هكذا– ليحكم عليها وهي حافرة.

أجل هذه هي تماثيلكم وأصنامكم التي تدعونا من دون الله، أليس كذلك؟ إذن فإنا سائلوكم أسئلة فأجيبوا عليها. ولتكن إجابتكم مقرونة بالدليل والشاهد.. اسمعوا إذن:

هذه هي الأرض ممتدة واسعة، فيها أنهار وبحور، فيها زروع وكروم، فيها منازل وجبال وصحاري، فيها ذلك وغير ذلك.

---

[135] المرجع السابق، ص440.

[136] سورة الأحقاف الآية: 4.

[137] محمد المطعني ، خصائص التعبير القرآني، ج1، ص433.

فأروني ماذا خلق أصنامكم منها كلها أو بعضها.؟ إن زعمتم أن شيئا من ذلك لهم فأقيموا الدليل.؟

لندع الأرض وما عليها.

هذه السماوات الطباق، خلقها الله ورفعها- هكذا- في الفضاء ليس لها عمد ترتكز بها على الأرض.

أصنامكم، ما هو نصيبهم منها؟ وكيف؟

إن زعمتم ذلك فأتوا بالدليل، وإلاّ فأنتم مضلون مخدوعون، ولا يحق لكم أن تستمروا على هذا الضلال. والداعي يدعوكم إلى الصواب.

أتدرون ما هو الدليل الذي نطلبه منكم على صحة دعواكم؟ إن هذا الدليل يتلخص في خطوتين أيسرهما عسير؟

الأولى:﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ هل في مقدوركم ذلك؟ و إلا فافعلوا وإنا لمنتظرون.

أعجزتم؟... نحن نعذركم لأننا نعلم أنكم عاجزون، فنخفف عنكم في كيفية الدليل، دعوا الكتاب،حيث لم تأتوا ولن تأتوا به، وأتوا بأيسر الأمرين.

الثانية: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ إثارة أية إثارة من علم تؤيدكم، أهذه صعبة؟ صعبة كذلك- أم مستحيلة- إنها مستحيلة.

أعجزتم عن هذه وتلك، فاعلموا الآن أنكم كاذبون في دعواكم.. لأنكم لم تشفعوها بدليل، فكفوا إذن ولا تسترسلوا في أباطيلكم.

هذه جولة حكيمة مفحمة لم يحاورهم القرآن فيها محاجيا أو ملغزا، وإنما حاورهم في وضوح، وفي سهولة. اتخذ من الأرض ومن السماء وحدات للقياس، وألزمهم الحجة في نص لم تزد كلماته على التسع والعشرين كلمة. انتصر عليهم وتركهم منهزمين.

حوار إبراهيم و ضيفه :

قال الله تعالى:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما .

قال إنا منكم وجلون .

قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم .

قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟

قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟

قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين .

فلما جاء آل لوط المرسلون .

قال إنكم قوم منكرون .

قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون .

و قضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة يستبشرون.

قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني واتقوا الله ولا تخزوني.

قالوا أولم ننهك عن العالمين.

قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين .

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[138].

لقد ذكرت قصة لوط بتمامها في عدة سور باختلاف يسير، فبعضها يكمل بعضها.

فوردت قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط في مواضع متفرقة و بأشكال متنوعة، على سبيل المثال فقد وردت القصة في سورة الأعراف و هي تتضمن استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة من غير ذكر لمجئ الملائكة إليه ، مع تفضيل بما يتعلق تبشير إبراهيم و امرأته بغلام ، كما ورد الحوار متعلقا بالموضوع نفسه في سورة هود من غير كشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاء إليه قومه يتراكضون للفاحشة ، و هو يرجوهم و يحاول صدهم عن اقترافها ، أما في هذا المقام من السورة فيكشف من بدية الحوار عن طبيعة الملائكة ، و أخر حكاية القوم و أثمارهم بضيف لوط ، المقصود هنا هو تصديق النذير لكون الملائكة حين ينزلون فإن القوم لا يمهلون و الدمار واقع لا مناص .

بعد أن لقينا بعض الضوء على الجو العام للحوار ، فلندخل الحوار :

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾

﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

---

[138] سورة الحجر ، الآيات : 49-74

فقد دخل الضيف – و تطلق (الضيف) على الواحد و الجمع ، و يدل على أنهم كانوا أكثر من واحد قوله تعالى – إذ دخلوا عليه – دخل الضيف على سيدنا إبراهيم فحيوه بالسلام ، فأعرب لهم عما في نفسه (إنا منكم وجلون).

و لم يذكر القرآن الكريم في هذه السورة سبب خوفه منهم ، وهو الأمر الذي ذكر في سورة هود لما رأى أيديهم لاتصل إلى العجل الحنيذ الذي ضيفهم به.

و في أوج الوجل الذي يحسه إبراهيم عليه السلام يلطف الملائكة الجو العام :

﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

فالملائكة يزرعون الاطمئنان في نفس إبراهيم ، و يبشرونه بإسحاق عليه السلام على كبره و تقدم سنه ، الذي يعرب عنه متسائلا ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

يقطع الملائكة استرساله في تعجبه و تساؤله ، مبينين أن ما ينقلونه إليه من بشرى إنما هو الحق فلا مجال ليأس :

﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

مما جعل إبراهيم عليه السلام يعود مسرعا فينفض عن نفسه أن يكون قانطا من رحمة ربه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

و نرى أن العبارة رحمة الله الواردة في جواب إبراهيم عليه السلام إنما جاءت منسجمة متناسقة مع مقدمة قوله تعالى لمحمد صل الله عليه و سلم ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ذلك شأن القرآن الكريم كلمات شامخة متناغمة تجعل حوار المؤلف كلا واحدا لا مجال فيه لتبديل كلمة الأخرى .

بعد أن أنزل على إبراهيم الوحي ، بعد أن فاضت نفسه بالسعادة التي فجرتها بعد أن كبر و امرأته .....يسأل ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

فتبين الملائكة أنهم إنما أتوا لغاية هي إهلاك قوم لوط :

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

يتجاوز الحوار القرآني هنا جدال إبراهيم عن لوط وقومه ،فيصل إلى الغاية وهي إخباره بالنبأ كله ،ليتحقق سياق الدورة فوز بالرحمة للوط وأهله ،وعذابا مدمرا ينصب على قومه .

ويعمد الحوار مع إبراهيم . ومضي الملائكة للمهمة الموكولة إليهم لتنفيذها بقوم لوط.

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.[139]

قال عن السفينة : (احمل فيها) فعدى الفعل بـ (في) ،لكنه عداه ب(على)

في سورة المؤمنون حيث قال :﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾.[140]

والأصل في الفعل (حمل) أن يعدى بـ (على) ،أما قوله : (احمل فيها) فلأن المقصود سفينة نوح – عليه السلام – وقد كانت مطبقة مغطاة فناسبت التعدية بـ (في) الدالة على الظرفية، أما في آية المؤمنون فالمقصود كل سفينة ، والمحمولون هم الناس الذين يكونون عادة في أعلاها ، فناسب التعدية بـ(على).

وقيل : إنه قد غلب غير الأدميين في الحديث عن سفينة نوح – عليه السلام – لأنهم؟ أكثر من الأدميين ، وكانت السفينة ثلاث طبقات ، فكانت الحيوانات والحشرات والطيور في الطبقة السفلى من السفينة ، أي في داخلها ، وكانت الوسطى للطعام ، أما الأدميون ففي اعلاها ، كذا ذكر أبو حيان – رحمة الله – فغلبت (في) الدالة على الظرفية، (على) الدالة على الإستعلاء[141].

---

[139] سورة هود ، الاية 40.

[140] سورة المؤمنون، الآية 22.

[141] صالح بن حسين العايد، نظرات لغوية في القرآن الكريم، ص 128.

حوار هود مع قومه :

وقال سبحانه على لسان هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[142].

في هذه الآيات الثماني تبدأ حياة أمة, ثم تنتهي، أمّة ضلت طريق الحق ورسولها يدعوها على ذلك الطريق. أخلص لهم رسولهم – هو د – في النصح والإرشاد ونهاهم عن عبادة الأصنام. وأمرهم أن يعبدوا الله– وحده – ويستغفرونه. فإذا فعلوا هطلت عليهم نعمة:

يرسل عليهم السماء مدرارا فتجود الأرض بالخيرات ليأكلوا هم وأنعامهم من فضله ويحيوا حياة سعيدة.

ويزيدهم قوة إلى قوتهم, فلا يطمع فيهم طامع, ولا ينال منهم عدو.

---

[142] سورة هود الآيات 50–58.

لكنهم لووا أعناقهم قائلين: ﴿يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[143].

ويرمونه بالسوء من بعض أصنامهم، فيبرأ منهم, ويشهد الله ويشهدهم على براءته من شركهم.

ثم يغيرهم على أن يكيدوه مجتمعين إن استطاعوا هم وألهتهم, وليفاجئوه بهذا الكيد دون أن يضروه.

ويبيّن لهم أنه توكل على الله ربه وربهم، الذي هو آخذ بناصية كل دابة، رب له الغلب وجنده هم المنتصرون، وصراط هو المستقيم. ويبين لهم – كذلك – أنه قد أبلغهم رسالة ربه فإن أعرضوا أهلكهم الله ويبدل غيرهم ولا يضروه شيئا.[144]

هلاك المخالفين:

وتنتهي القصة بأنّ الله نجى هودا والمؤمنين معه. نجاهم من عذاب غليظ. وهلكت عاد. فلم يستطيعوا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم، و لم تستطع ألهتهم أن تنصرهم.

نصره الله ونجّاه ومن آمن معه، لأنه قادر عظيم.

وخذلتهم آلهتهم لأنها عاجزة حقيرة تتأثر بعوامل الدهر, ولا تؤثر في شيء، وهذا هو موضع العبرة في كلمات قضاء، فليتدبرها مشركو مكة والمصلون في كل مكان وزمان: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[145].

في الأمثلة جميعا يجرد القرآن الأصنام من كل صفات القوة والتأثير، ويضعها في مكانها الحقيقي من عالم الجمادات، فهي لا تنفع عابدا لها، ولا تضر عاصيا، ويستهدف القرآن من وراء هذا صرف الناس عن هذه النزعة الضالة، موجه لهم الوجهة السليمة في الاعتقاد القلبي والسلوك العملي.

---

143 سورة هود، الآية 53.

144 محمد المطعني، خصائص التعبير القرآني، ج1، ص442.

145 سورة هود الآية 60.

ضعف الأصنام: ونذكر مثلين ضربهما القرآن لضعف الأصنام، بعد أن شنع على هذه الأباطيل مما خاطب الله به المشركين خطابا مباشرا:

أولهما: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[146].

ذلك مثلهم، فهل بيت العنكبوت بغريب عن أفكارهم، أم هو شيء مألوف لهم يرونه صباح مساء. وأنقل هنا كلام الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله في هذا السياق إذ يقول:"أي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه الإنسان إلى أنه لا أحد يرعاه، ويعطي له الرزق والحماية إلا الله سبحانه وتعالى،وأنه إذا ابتعد عن الله، فأين يذهب، وإلى من يلتجئ، ومن الذي يملك له من الله شيئا، لا أحد، ولذلك فإن أولئك الذين يحسبون أنهم عندما يلجأون لغير الله يحققون شيئا، فإنهم واهمون، ذلك لأنهم لم يلجاؤا إلى شيء له قوة أو قدرة، بل لجأوا إلى شيء بلا قدرة".[147] ومن المعلوم أن من فوائد البيت ومقاصد بنائه أن يحمي صاحبه عند المبيت من الريح والمطر والهوام والوحوش؟ كما أن من فوائد العبادة اللجوء إلى المعبود في الشدائد والاستغاثة به، وكل المعبودين من دون الله، أضعف من أن يغيثوا عابديهم عند الموت أو المرض أو الزلزال أو الأعاصير، أو القحط.

ثانيهم ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.[148]

---

[146] سورة العنكبوت الآية 41.

[147] محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، ج1، الجزائر، مطبعة رحاب، ط1، 1996، ص24.

[148] سورة الحج الآية 73.

ذلك مثلهم في عدم النفع, وهذا مثلهم في عدم الإيجاد أو جلب النفع لأنفسهم، وإن شاءوا فليجربوا فعناصر القصة تتألف من الأصنام والذباب وفتات الطعام فليفروا الذباب يحمل شيء منه, وليطلبوا من الأصنام إعادته, فهل يمكنهم ذلك؟ فليفكروا.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسير هذه الآيات: "وفي هذا يتحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها، بالعلم الذي سيحققونه أنهم لن يصلوا إلى خلق ذبابة،ولا إلى استرجاع ما يأخذه الذباب من طعامهم أو شرابهم، وهذا دليل على ضعفهم، على أن هذا التحدي في خلق أضعف المخلوقات وهي الذبابة ، يريد الله أن يؤكد به أن البشرية قد تصل إلى القمر، وإلى المريخ، ولكنها لن تستطيع أن تصل إلى سر خلق الحياة أو المادة الحية، فهل ستضل عاجزة على مر السنين عن ذلك".[149]

موضوعات الحوار القرآني متعددة لكننا نختار منها موضوعين اثنين لنرى كيف حاورهم القرآن وأي منهج سلك.

وهذان الموضوعان هما: قضية التوحيد, وما يتعلق بها, ثم قضية البعث وما يتعلق بها.

قضية التوحيد:

جاء القرآن ينكر على المشركين ما هم فيه من عبادة الأصنام، وفكرة تعدد الآلهة، وأن يكون هناك صلة بين الخالق الحقيقي المخصوص بالعبادة، وبين هذه الأصنام التي يتقربون بها – في زعمهم – إلى الله, كما حكى القرآن: ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.[150]

---

[149] المرجع السابق، ج1، ص33.

[150] سورة الزمر، الآية 3.

وكانت هذه هي القضية الأولى التي يواجهها الإسلام. ولقد قطع القرآن – في مكة – شوطا كبيراً في محاربة هذه الضلال. لافتا الأنظار إلى الحقيقة. ممثلا وواعظا، مجادلا ومحاوراً، منذراً ومبشراً، مناقشاً وهادياً.

كان القوم يبررون ما هم عليه بحجج واهية تتخلص في:

1- التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم.

2-أن هذه الآلهة وسيلة للتقرب إلى الله.

3- أن فكرة وحدة الخالق أمر مستحدث.

وقد صور لنا القرآن في سورة (ص) اعتراضهم وما أسندوا عليه من دليل فقال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾.[151]

فكرة التوحيد عند هؤلاء القوم فكرة عجيبة، صاحبها مختلق لها، لأن الرّواية لم تنقلها لهم، إنها لمؤامرة، فليثبتوا على آلهتهم هذا تصورهم للموضوع. والملة الآخرة التي اتخذوها سندا هي ملة عيسى عليه السلام. لأن النصارى حرفوها مثلثين لا موحدين. أو هي ملة قريش وما كانت عليه من عبادة الأصنام.

ردّ القرآن: موقف القران من هذه الدعاوى هو موقف المنكر المبطل لما يدعون.

قال تعالى:

﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ

---

[151] سورة ص، الآيات 5-8.

لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.[152]

وفي الرد يبدأ القرآن بحقيقة هامة. ثم يمضي في الإنكار والتوبيخ لهؤلاء المعاندين فيبين أوّلا أنهم في شك من ذكر الله. وأن هذا الشك يزول إذا ذاقوا العذاب ثم يأخذ في توبيخهم فيقول:

أهؤلاء يملكون خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب فيصيبوا بها من يشاؤن ويمنعوها عمن يشاءون؟ ويتخيروا النبوة لبعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه السلام؟ هم لا يملكون لذلك. إذن فليس لهم من الأمر شيئ.[153]

أم لهؤلاء ملك السماوات والأرض وما بينهما؟ إن كان لهم فليرتقوا في الأسباب ويصعدوا المعارج إلى العرش فيستولوا عليه، ويدبروا الأمر.

إذن فليس لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فلذلك لم يرتقوا في الأسباب. إذن فليخسؤا.[154]

ثم يبين لهم حقيقة أمرهم. وسوء مصيرهم. فيقول:﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.[155]

وفي هذا تسلية وقوة عزم للرسول عليه الصلاة والسلام أن لا تبال بما يقولون فإن مصيرهم الهزيمة، ولن ينتصروا عليك بحال.

ويكمل الرد بسوق أمثلة ووقائع تاريخية حيث كذبت أقوال الرسل فهلكوا.

---

[152] سورة ص ، الآيات 8-14.

[153] محمد المطعني، خصائص التفسير القرآني، ص432.

[154] المرجع نفسه، ص 432.

[155] سورة ص ،الآية 11.

ثم يجول معهم القرآن جولات أخرى مبينا لهم أن هذه الأصنام التي يتخذون منها آلهة يعبدونها ما هي إلا أشكال جامدة لم ولن تنفع، و لم ولن تضر.[156]

حوار نوح و قومه :

قال تعالى :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[157]

يعرض لنا القرآن الكريم في هذه الآيات من سورة الأعراف مشاهد متتالية من الصراع العميق طول الحياة، بين إبليس اللعين. و الإنسان، بين إبليس و إصراره على إرضاء حقده و تحقيق مآربه، و تنفيذ وعيده، حيث أرجأه الله إلى يوم يبعثون.

و قد مضى على هبوط الإنسان حين من الدهر، تقاذفته الأمواج، فنسى في غمرة حياته أن الشيطان قد غلب، وهو بالمرصاد أبدا.

---

[156] محمد المطعي، خصائص التفسير القرآني، ج1، ص433.

[157] سورة الأعراف ، الآيات : 59-64

و نحن في هذه الحوارات المتوالية - و في حوارنا مع نوح هنا - إنما نشهد جهد الأنبياء عليهم صلوات الله أجمعين، نشهدهم و هم يحاولون جاهدين إنقاذ الركب البشري من الغرق في بحر الضلال الذي ينفخ في أمواجه الشيطان و أعوانه.[158]

و يمكن أن نلخص ما خلصنا منه من كل الحوارات مع الأنبياء عليهم صلوات الله و سلامه أجمعين، نلخص ما خلصنا إليه من الحوارات بما يلي :

1- لقد أكدت كل رسالة على وحدانية الله، و هي نقطة أساسية.

2- لم يأت أي رسول إلى قومه إلا بعد انحرافهم عن الجادة التي رسمها الرسول السابق.

3- جاءت الحوارات مصورة لطبيعة الإيمان و طبيعة الكفر في النفس البشرية.

يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

إنها دعوة خلاصة صريحة لعبادة الله سبحانه، فالسلطان الله وحده، و العبودية لله وحده، ومن يعص الله، أو يتخذ له شريكا أو ندا فإنما مثواه النار و ساءت منقلبا. مما يجعل سيدنا نوحا يذكر قومه ناصحا: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

يتضمن الخطاب الحواري إقرارا بأنه لا بد من يوم يجمع الله الناس فيحاسبهم على ما عملوا في دنياهم، و نوح عليه السلام يخاف على قومه من سوء العاقبة في اليوم العظيم.

رقة في الدعوة، حرص على الإنقاذ قبل الوقوع في المنزلق، هذه الرقة و ذلك الحرص يقابلان بشراسة القول ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

يرد نوح عليه السلام عن نفسه الضلالة ، و يبين منهج دعوته و أنه رسول الله ، يحمل في طيات رسالته الهدى و النصح و العلم بما لا يعلمون.

---

[158] ينظر أحمد سنب، الحوار القرآني ، ص 81

﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

و يخاطبهم نوح عليه السلام:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فنوح عليه السلام ينذرهم بعاقبة الطريق التي عليهم أن يتدبروها و يتجنبوا مزالقها. ثم يأمرهم بتقوى الله، فيأتي الجواب تكذيبا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

يقول القرطبي في تفسيره : "(أو عجبتم) فتحت الواو لأنها واو عطف، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير و بسيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها ".[159]

من حوار نوح عليه السلام وقومه:

قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ

---

[159] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7 ، ص 235

فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .

قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ.

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.[160]

تأتي الحوارات هنا كعلامات على طريق البشرية، تسلط الأضواء على ما كان من عاقبة تكذيب الرسل في القرون الأولى الخالية فقد كان لكل أمة رسول يقضي بين الناس بالقسط.

وهنا يكلف الله سبحانه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقص على قومه نبأ سيدنا نوح ليأخذ المسلمون عظة وعبرة من ذلك ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، لأن القصة هنا تناسب موقف المشركين في مكة من النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تناسب القلة المؤمنة المعتزة بإيمانها في وجه الشرك والقوة التي يتمتع بها المشركون.

لقد سبق أن تناول القرآن الكريم موضوع السفينة والطوفان وهنا تركزت الحوارات على أبرز التحدي المؤمن، المتسعين بالله وحده. ونجاة سيدنا نوح ومن معه على قلتهم وهلاك المكذبين على كثرتهم .

﴿يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِي﴾.

---

[160] سورة يونس ، الآيات :71-78

يخاطب نوح عليه السلام قومه:"إن كان يضايقكم بقائي فيكم ودعوتي لكم لإيمان الله، وتذكيري المستمر بآياته، فافعلوا ما تريدون، فأنا، ماض في طريق معتمدا على الله وحده ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾

إنه كلام نبي، وثق من ربه فأعطاه ربه العزم على المواجهة والتحدي الصارخ، حتى أنه يغري أعداءه لمجابهته، ويحرضهم على حشد طاقاتهم كلها لقتاله.

إنه الإيمان الذي يصهر كل التهديدات ويذيبها، الإيمان الذي ينبض في أعماق النفس فيتبدى قوة تضرب كل جوانب الشرك..إيمان يتحدى!!

من غير غرور أو تهور، إيمان يتجذر في النفس فيهبها في كل لحظة برعما يتنفس إيمانا صارخا تصغر أمامه التحديات كلها وتتقزم فتبدوا عاجزة عن أن تصيب النفس المؤمنة بأدني رعشات الخوف.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

ويختصر القرآن الكريم الحوار ليصل إلى النتيجة التي هي هدفه الذي يريد وضعه أمام أعين الذين لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ليروا عاقبة المكذبين ومصيرهم وليضع من جهة أخرى أمام أعين المشركين صورة نجاة المرسلين.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

لقد تمت نجاة المؤمنين واستخلفوا في الأرض، كما انتهى أمر المكذبين إلى هلاك وإغراق.

نلاحظ هنا قدرة القرآن الكريم السردية التي تنهي الحوار بأحداث تتوالى صراعا، فمن تكذيب إلى النجاة في الفلك إلى استخلاف بعد إغراق المكذبين، لتدب الحياة والحركة في الأرض من جديد، وليرفع اسم الله الذي لا إله إلا هو.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

يعرض القرآن الكريم أحوال المكذبين بإيجاز شديد، ليبين من وراء ذلك أن الله يرسل الرسل إلى قومهم بحجج وأدلة، وبراهين على الصدق الذي أتوا به، فما كانت تلك الأمم لتؤمن بما جاءت به الرسل نظرا لأن تلك الأمم قد كذبت الرسل أول ما أرسلت.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

هكذا يطبع الله على قلوبهم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

حوار موسى مع بني إسرائيل :

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [161].

قصة البقرة :

في هذه الآيات نحن أمام حوار يكشف لنا عن جوانب كثيرة تهتك الستر عن بني إسرائيل، وتجعلهم هم أنفسهم، يفضحون نفوسهم القائمة على الشك، وعدم الرضوخ لأمر نبيهم الذي هو أمر الله سبحانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

الكلمات مختصرة، واضحة، بينة، شطح وضوحا. هذه الكلمات تكفي لوحدها من تنفيذ الأمر.. طالما إن هذا النبي ينقل ما يوحى إليه. والتأكيد في قوله تعالى: "إن الله يأمركم"

النفس المؤمنة تصدع لأمر ربها، أما الذي حدث هو مخاتلة بدأت بالرد سفاهة حيث قالوا لنبيهم:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

متى كان الرسل يسخرون ؟!.. انه افتراء على نبيهم ويكون رد موسى- عليه السلام في قالب أخلاقي مصاغ من الصبر: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير: (تبرؤ وتنزه عن الهزأ لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل فانه اخص من المزح لان في الهزأ مزحا مع استخفاف واحتقار للممزوح معه على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، على انه لا يليق بمقام الرسول ولذا تبرا منه موسى بان نفى إن يكون من الجاهلية كناية عن نفي المزح بنفي ملزومة، وبالغ في التنزه بقوله أعوذ بالله أي منه لان العياذ بالله ابلغ كلمات النفي فان المرء لا يعوذ

---

[161] سورة البقرة، الآيات : 67 - 71.

بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى. وصيغة إن أكون من الجاهلين ابلغ في انتفاء الجهالة...)[162].

فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾.

الشك ما يزال يحوم في أعماق نفوسهم بان رسولهم إنما يهزا بهم !! .. والشيء الخفي في هذا الطلب أنهم لم يقولوا له.. ادع لنا(ربنا) وإنما، ادع لنا (ربك) وكأنهم في منأى عن الإيمان بان ربه هو ربهم. فان كان ما يقوله موسى هو منقول عن الله فما عليه إلا أن يبين لهم ما هي البقرة.

هل البقرة إلى إبانة وإيضاح؟!.. إنها بقرة، أي بقرة من غير تحديد. لكنهم على درجة من المكر والمخادعة والمماحكة لم تصل إليها امة من الأمم.. يجيبهم موسى بصبر وسعة صدر، وهو العارف بما يجول في نفوسهم.

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

هنا، نحن أمام دائرة تضييق على اليهود، وقد أرادوا أن يضيعوها على رسولهم فوقعوا هم فيها.. في شرور أنفسهم[163].

هناك أمر في المنطق، هو العلاقة بين الشمول والتضمن. فالشمول يدل على الأفراد أو الأشياء التي يحويها الحد. والحد هنا (البقرة)، وهي تشمل أي بقرة. أما التضمن فيدل على الصفات التي يتميز بها الحد من حد أخر، والتي تتخذ أساسا في تعريفه. والشمول والتضمن يتناسبان تناسبا عكسيا، فكلما زاد التضمن نقص الشمول، والعكس صحيح. وقد أوقع القوم أنفسهم في شر أعمالهم حيث ضيقوا الخناق على أنفسهم وما يشعرون[164].

---

[162] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص548.

[163] ينظر: الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، ص26.

[164] ينظر: المرجع نفسه، ص26.

لقد حددت البقرة بأنها بقرة لا هي مسنة ولا فتية، هي وسط بين هذا وذاك وما على اليهود بعد هذا التحديد إلا أن يصدعوا للأمر.[165]

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

أيّة بقرة تتوافر فيها هذه الصفات عليهم ذبحها تنفيذا لأمر ربهم ولكنهم يقولوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ يصرون أنه (ربك) يقصدون رب موسى، ويطلبون منه أن يبين لهم ما لون البقرة. فيجيبهم بأخلاق النبي:

﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

يضيق عليهم الخناق: البقرة متوسطة السن. صفراء فاقع لونها. تسر الناظرين، ليست هزيلة ولا مشوهة.

ثم تمادوا في التضييق على أنفسهم فقالوا:

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لقد وقعوا في الشرك الذي نصبوه. لذلك يأتي الطلب:

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

لقد تعقدت الأمور عليهم فاستسلموا قائلين: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وهل كان الذي قاله من قبل غير حق؟!

﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[166].

كان قوم موسى قد قتلوا نفسا منهم، وكل فريق يدفع عن نفسه تهمة القتل. ويلصقها بالآخر. وقد أراد الله سبحانه أن يظهر الحق على لسان القتيل نفسه. وكان ذبح البقرة هو الوسيلة لعودة القتيل للحياة. وما إن ضربوه بجزء من البقرة حتى

---

[165] ينظر : المرجع السابق، ص26.

[166] سورة البقرة، الآية : 73.

عادت إليه الروح فانتفض الميت ناطقا. تلك إرادة الله. القدرة التي ليس في مقدورنا نحن بني البشر مناقشتها، فالمسافة بين الموت والحياة هائلة رهيبة[167]

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[168].

إذا عدنا إلى هذا الحوار نجده يتصف بعبارات واضحة، لا تحمل أكثر من وجه. والحوار في أول الأمر يسير، هين- يترك لقوم موسى فسحة كبيرة للتحرك لتلبية طلب المولى سبحانه. ثم يضيق المسافة ويحددها حتى حوصر القوم في دائرة ضيقة، ثم بعد ما تقدم، ماذا نتوقع؟

النتيجة تجيء على غير ما توقع، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

يقول سيد قطب- رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:"والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقصى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا. ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى. ولا تنبض بخشية ولا تقوى قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة. ومن ثم هذا التهديد".

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب والالتواء واللجاجة والكيد والدس والقسوة والجدب والتمرد والفسوق؟[169]

قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[170].

---

[167] ينظر: المرجع السابق، ص27.

[168] سورة البقرة، الآية 73.

[169] سيد قطب في ظلال القرآن، المرجع السابق، المجلد الأول، ج1 ، ص80.

[170] سورة البقرة، الآية: 74.

أتى بالتفصيل من القسوة بواسطة "أشد" مع أن (قسا) مما يؤتى ب(افعل) التفصيل منه مباشرة فيقال(الأقسى) والإتيان ب(أشد) أبين، وأدل على فرط القسوة، ولأنه لا يريد معنى (الأقسى) ولكن قصد وصف قسوة. كذا قال الزمخشري في الكشاف: ولا شك أن قول الله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أدخل في الإسهاب من قول القائل: (أم الأقسى) .

و نرى أن كلمة" أشد" مرفوعة، وقد وقعت بعد (أو) العاطفة، ورفعها إما بكونها معطوفة على الكاف من قوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ فالكاف اسم بمعنى (مثل) واقع خبرا. وإما أن تكون " أشد" معطوفة على محل الجار والمجرور: (كالحجارة) إذا جعلنا الكاف حرف جر. والرأي الثالث هو الأصح- أن تكون" أشد" خبر المبتدأ محذوف تقديره: أو هي أشد)[171].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.[172]

حوار مع بني إسرائيل:

نذكر هذا المثال ملخصا من كتاب "النبأ العظيم"[173] وضع الأستاذ محمد عبد الله دراز- رحمه الله- فان فيه علامات ناطقة وآيات حق شاهدة على روعة النظم

---

[171] ينظر:د. صالح بن حسين العابد، نظرات لغوية في القرآن الكريم، ص43.

[172] سورة الإسراء، الآيات: 4 - 7.

[173] عبد الله الدراز، النبأ العظيم، ص76.

القرآني، وإحكام الربط بين كلماته ومعانيه. وقد أدار الباحث تحليله حول هذه الآيـــة الكريمة :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[174].

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلـــة تتخلص في:

1- مقالة ينصح بها الناصح اليهود، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

2- إجابتهم لهذا الناصح بمقالات تنطوي على مقصدين

3- الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه

قال الناصح لليهود: أمنوا بالقرآن كما أمنتم بالتوراة، ألستم أمنتم بهـــا لأن الله أنزلها. فالقرآن كذلك أنزله الله. هذه المعاني كلها ضمنها القرآن هـــذه الكلـــمات ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ .

تفسير ذلك أنه عدل عن صريح اسم القرآن إلى كنايته " آمنا بما انزل الله " فجعل دعاء إلى الشيء بحجته فأخرج الدليل والدعوى في لفض واحد.

جواب اليهود :

وكان جواب اليهود: إنا الذي دعانا إلى الإيمان بالتوراة، ليس كونها أنزلهـــا الله فحسب، بل لأنها أنزلت علينا. فلكم قرآنكم ولنا توراتنا، ولكل امة شرعة ومنهـــاج. هذه المعاني أوجزها الله في قوله ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهذه المقصود الأول، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال: ﴿اللَّهُ﴾ لتقدم ذكره في نضيرها.

---

[174] سورة البقرة، الآية :91.

و من الواضح أن الإيمان بما أنزل عليهم يؤمن إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم – ومنه القرآن – وهذا هو المقصد الثاني، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه ويفضح أمرهم.فكيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبا لهم من لم ينتقل عنهم ذلك نقلا ضمن ما قالوه، لأنهم لم يقولوه صراحة. بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم.

فقال: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل؟.

وجاء التعبير ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ محددا للجريمة أبين تحديد. لأنهم كما كفروا بالقرآن كفروا بالإنجيل، وكلاهما وراء التوراة. ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة لعدم تزاحمهم لهم فيما بين أيديهم.

وهذا لفظ جامع مانع، وغاية في توخي الصدق في الاتهام, فعداوة اليهود الحاقدة للقرآن لم تمنع القرآن من الإنصاف والعدالة.[175]

الرد و المناقشة:

وجاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وأسروه فترى القرآن لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم بل يتركها مؤقتا كأنها سليمة ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول:"كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثا على الكفر بما هو حق مثله؟".

لا بل "هو الحق" كله وهل يعارض الحق, فيكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالأخر[176]

ثم يترقى فيقول: وعجيبة العجائب أن الحق الذي كفروا به جاء مصدقا لما سبق من الكتب المنزلة, ومنها التوراة التي آمنوا بها – فكيف يكذب به من يؤمن بها؟ فانظر إلى الأحكام. إنما هي كلمة رفعت وأخرى وضعت في مكانها عند

---

[175] المرجع السابق ص126.

[176] المرجع نفسه ص127.

الحاجة إليها.فكانت حسما لكل عذر, سادة لكل باب من الأبـــواب الهـــروب، بـــل كانت بمثابة حركة تطويق للخصم أتت في خطوة واحدة هادئة رزينة.)[177]

إفحام الخصم:

وبعد هذا التعليق الفاضح للخصم، الكاشف لنواياه السيئة، القاطع عليه طريـــق النجاح. انبرى القرآن للرد على المقصد الأصلي وهو دعواهم الإيمان بما أنـــزل عليهـــم فأوسعهم إكذابا. وبين أن الكفر والجحود داء دفين فيهم، ومرض مزمن توارثوه جيـــلا عن جيل.

فليس الذي أتوه اليوم إلا حلقة متصلة السلسلة بماضيهم اللعين. وســـاق علـــى ذالك الشواهد والوقائع التاريخية بما لا سبيل لإنكارها. جهل بالله, وانتهاك حرم الأنبياء.

وتمرد على الأوامر: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّـــهِ مِـــنْ قَبْـــلُ إِنْ كُنْتُـــمْ مُؤْمِنِينَ﴾[178]. هنا تبرز حقائق يجب أن نتأملها:

1 – نتأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في أخـــر المرحلـــة السابقة لأن السامع يفهم من يكن بينهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهل الذي يكذب من يصدك يبقى مصدقا لك؟ غير أن هذا المعنى إنمـــا أخـــذ استنباطا من أقوالهم، وإلزاما لهم بما لمذاهبهم، و لم يؤخذ بطريـــق مباشـــر مـــن واقـــع أحوالهم فكانت هذه هـــــي مهمة الرد الجديد.وهكذا كانت كلمة ﴿مُصَدِّقًا لِمَـــا مَعَهُـــمْ﴾ مغلقا لما قبلها مفتاحا لما بعدها، وكانت أخر درجة في سلم الغرض الأول هي أوّل درجة في سلم الغرض الثاني. فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام, وما أرشـــد هذه القيادة للنفس بزمام البيان, تدريجا له على مدارجها وتنزيلا له على قدر حاجتهـــا. وفي وقت تلك الحاجة.

---

[177] المرجع السابق ، ص127.

[178] البقرة، الآية :91.

2 – وننظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي. وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم فلم يقل: فلم قتل آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا﴾[179] لأنه لوجاء القول- كذلك – لقالوا: تلك أمة قد خلت.ولو زاد: وأنتم مثلهم. لجاء هذا التدارك بعد فوات البيان. فكان اختصار الكلام على هذا الوجه إسراعا بتسديد الحجة إلى هدفها. وأنهم سواسية الحرم فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم.

3- وقد زاد هذا المعنى ترشيحا بإخراج الجريمة الأولى- وهي جريمة القتل – في صيغة الفعل المضارع تصويرا لها بصورة الأمر الواقع الآن, وكأنه بذلك يعرض على النضارة هؤلاء المجرمين أنفسهم, وأيديهم ملونة بتلك الدماء الزكية.[180]

4- ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح بابا من الايحاس لقلب النبي العربي الكريم, وبابا من الإطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله. فننظر كيف أسففنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله:"من قبل" فثبت قلب النبي، قطع إطماعهم. كما أشارت هذه الكلمة إلى إرادة التجوز في الكلام.

5- وننظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صفة الماضي بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق حاجة إلى مثل التعبير الأول.

6- وأنظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية- وهي جريمة الشرك- فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نكرا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها. فلم يقل: اتخذتم العجل إلها، بل طوى هذا المفعول الثاني للتصريح به في صحبة الأول وبيانا لما بينهما من مفارقة. وكم في هذا الهدف من تعبير وتهو يل.

---

[179] سورة البقرة، الآية :93.

[180] المرجع السابق، ص143.

7- ثم ننظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل، فأغنى عن كل زيادة لا تمس إليها الحاجة البيانية في الحال. فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾[181].

و لم يبين مدى هذا التصديق, أفي أصول الدين فحسب؟ أم في الأصول وبعض الفروع؟ والى أي حد... فليبحث علماء التشريع.

وقال: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾[182] فمن هؤلاء الأنبياء؟ وكم عددهم؟. فليبحث علماء التاريخ.

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[183] فكم هي؟... وما هي؟ ...

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾[184] فما صيغة هذا الميثاق؟ وعلى أي شيء أعطوه؟... لا أحد يدري.

إن حكمة البيان القرآني لأجل من أن تعرض لمثل هذا الوضع. وليس في تركها عيب أو نقص.

8- إنّنا نلمح وراء هذا البيان قوة قوية. أعلى من أن تنفعل بمثل هذه الأغراض. قوة تأثر ولا تناثر. تصف لنا الحقائق في أمانة خيرها وشرها في عزة من لا ينفعه خير. واقتدار من لا يضره شر. وهذا شأن القرآن أبدا وسمته التي لا يشركه فيها قسيم.

ننظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾.[185]

نعم، إنها كلمة تملأ النفس, ولا يتطلب الموصوف بها وصفا أشرف من هذا الوصف الذي يحوي كل الفضائل.

---

[181] سورة البقرة، الآية:91.

[182] سورة البقرة، الآية :91.

[183] سورة البقرة، الآية: 92.

[184] سورة البقرة، الآية :93.

[185] سورة البقرة، الآية :91.

حوار نبي من بعد موسى مع بني إسرائيل:

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾

﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [186].

إن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم ليكون دستورا نسير على نهجه ونهتدي بهدية، وأي ابتعاد عن هذا النهج معناه أن نصير إلى مزالق كثيرة تدمي الأقدام والنفوس. ذلك ما لمسناه من استقراء الحوار الذي بين أيدينا فالقرآن الكريم يعرض لنا المزالق التي وقع فيها بنوا إسرائيل ليكون الطريق الذي سلكوه عبرة للأمة، فالله سبحانه يعلم آت أجيالا من أمتنا سوف تمر أثناء مسيرتها بمواقف مشابهة لمواقف بني إسرائيل وما نحن فيه الآن من تفرق ونزاعات هو خير دليل على صحة ما انتهينا إليه من دراسة الآيات فالأمة العربية المسلمة ممزقة الكيان ولابد أن ندرك مع -تودروف- (أنّ القهر الداخلي في الذات الجماعية يسهم في إضعاف مقاومة القهر الخارجي)[187] وهذا قانون عام ينبغي الوعي به في كل الأحوال.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [188].

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[189].

الحوار واضح، مطول، لكأنّه شاشة فضية تعرض علينا بشكل تفصيلي دقيق ما تعرض له بنوا إسرائيل. كان القرآن الكريم يحذرنا من أمور فيها هلاكنا حتى يبقى كيان الأمة شامخا أمام كل الإعصارات التي تهب من الشرق والغرب.

أبطال الحوار نبي من بعد موسى عليه السلام، وبني إسرائيل، والحوار يبدأ بمقدمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

---

[186] سورة البقرة، الآيات : 246 - 251.

[187] ينظر: تزيفيتان تودروف، فتح أمريكا- مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، بيروت، دار شيتا للنشر، ط1، 1992، ص4.

[188] سورة يونس، الآية : 23.

[189] سورة الأنفال، الآية : 46.

فالرؤية هنا واقع منظور يموج حياة فالملأ يجتمعون إلى نبيّهم ويطلبون منه أن يعين لهم ملكا يقاتلون من وراءه وبإمرته في سبيل الله وكان بذور الإيمان قد انتشت في نفوسهم.

وهنا أنْقل ما قاله أحمد سنبل في دراسته لهذا الحوار: " إن أي دفاع عن أي مبدأ محكوم عليه بالفشل إن لم يحس من الأعماق إن المبدأ الذي ندافع عنه هو الحق عينه، ومن غير هذا الإيمان تتكسر السيوف كلها مهما ملكت من قوة باترة. فليست جودة السيف هي الأمر المهم في المعركة، إنما الشيء الأهم هو اليد القابضة عليه، فإن كانت اليد المؤمنة بالمبدأ الذي تدافع عنه تحقق النصر أما إن كانت اليد مزعزعة الضمير، غير مطمئنة للمبدأ الذي تقاتل من اجله فالمعركة خاسرة، بل إنها في الدرك الأسفل من الخسارة والهزيمة". [190]

لذلك يستوثق النبي من نية قومه، ويتأكد من تصميمهم وعزيمتهم قائلا: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ .

لأنّ القرار إن وقع موقع التنفيذ فلا تراجع لأنه قرار إلهي.

ويأتي رد القوم:- ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

أفلا يحق لنا أن نوجه السؤال لأنفسنا؟.. ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من فلسطين أرضنا المقدسة؟..أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومالنا ألاّ تقاتل وقد أخرجنا من العراق أرض الحضارة الإسلامية؟. . إن العلة في أنفسنا[191].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

في ساعة الرخاء تكون الحماسة وحين تأتي ساعة الحسم يكون الهروب.

---

[190] أحمد سنبل، الحوار القرآني بين التبصير والتفسير، المرجع السابق، ص36.

[191] ينظر: المرجع نفسه، ص36.

هذه الغضبة الجماعية يجب أن لا تخدعنا كأفراد أو جماعات يجب الحذر منها كي لا تضربنا بسهم الانكسار والهزيمة ساعة يحم القضاء ويتصاعد غبار المعارك ويسير بنا الحوار ليكشف النوايا الخبيثة لبني إسرائيل حين يقول لهم نبيهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾

قالوا:- أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، و لم يؤت سعة من المال!

إنها إسرائيل نفسها بمنطقها ذاته- ونحن في القرن الواحد والعشرون- المال هو الأمر الأساسي في نظرها، هو الذي يجعلها تبيع الغالي والرخيص. حتى لو بلغ هذا الغالي الشرف والكرامة، فهل من متبصر بأمر إسرائيل؟!

يرد عليهم نبيهم، مسوغا اختيار طالوت ملكا عليهم.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فالملك اختاره الله يملك فكرا يجعله عارفا بشؤون ما كلف به، كما يملك أيضا جسما يتميز به عنهم، ثم يثبت لهم نبيهم إن علامة ملكه أنه يأتيهم بالتابوت.[192] ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ويسير بنا الحوار ليسبر غور هؤلاء الجند اللذين يقاتلون مع ملكهم الذي يخضعهم لاختبار صعب منهم عطاش ويمرون بنهر فيقول لهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

الاختبار يكمن في الانصياع لأمر القائد في المعركة، وفي قتال الشهوات والاستعلاء عليها. وكانت النتيجة الانحدار إلى قاع السقوط في الامتحان، فقد شرب بعضهم

192 ينظر: المرجع السابق، ص37.

وانفصلوا عنه إلا القلة من الجيش المؤمنة. وهنا يصدمهم العدو والزاخر بالقوة بقيادة جالوت.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

قلائل أولئك الذين يرتقون إلى مرتبة الاصطفاء ففي الغربال لا تبقى إلا البذور السليمة بينما تتساقط بقية الأشياء الضعيفة، كذلك هو الأمر دائما في أي مجتمع، في أي زمان، القلة المتبقية قوية بإيمانها، كثيرة وإن قل عددها فهي قادرة على الإنتاش والعطاء، فهي تستمد العون والقوة والثقة والمدد منه سبحانه، القاهر، الجبار، المنتصر.

هكذا تسير الأمور حتى قيام الساعة، هكذا علمتنا استقراءات الأيام، القوة دائما لراسخي الإيمان الذين لا تزلزلهم قوات الطغيان أني كانت وكيفما كانت.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

صبر يزرع الطمأنينة في أعماق النفس. يذلل المشاق، ويرسخ الأقدام في أرض المعركة فتتجذر بالأرض من غير تراخ. أقدام ثابتة تتلقى العدو سلاح في القلب هو أقوى وأمضى من أي سلاح. فكانت النتيجة متوقعة في كل زمان ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

يقول صاحب(في ظلال القران): وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: "(فهزموهم بإذن الله) ويؤكد النص هذه الحقيقة:(بإذن الله) ليعلّمها المؤمنين أو ليزدادوا بها علما. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون. ولطبيعة القوة التي تجريه.إن المؤمنين ستار القدرة، يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين. "[193].

---

[193] سيد قطب، في ظلال القرآن، ص269.

ويصوم الحوار على صفحات بحثنا. لكن النفس المؤمنة تبقى في حـــوار لا يفـــتر. مشوقة إلى ذلك الفجر الذي ما بعده فجر وآخر دعواهم أنِ الحمـــــد لله رب العـــالمين. المستعان المعين.رب العرش العظيم.

الخاتمة

لا نزعم أننا ذهبنا، في هذا البحث إلى آخر مدى متاح، ولكننا مشينا خطى في مدى لغيرنا أن يمشي فيه إلى أبعد، فالمدى شاسع وغني، وليس في وسع إنسان واحد أن يقطعه إلى نهايته.

فلعنا بحاجة دائمة إلى النظر في النص القرآني من حيث هو كتاب كشف عن الإمكان.

قال الله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. والخطاب القرآني في أبعاده المختلفة يقدم مفهوما إنسانيا للحضارة، وينظر إلى التقدم بوصفه سعيا دائبا إلى تأسيس إنسانية متعددة تتمخض في اختلافها عن أخلاق إنسانية جامعة من خلال التعارف والتحاور، نقرأ قوله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وقبل ذلك كله، يجب أن تشيع روح التسامح بين المختلفين، وأن نفتح باب الحوار العلمي الراقي، الذي سمّاه القرآن " الجدال بالتي هي أحسن " مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك، لا مواضع التمايز والاختلاف، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[2]

بقيت حقيقة هامة لابد من الإشارة إليها ذلك أن القرآن بحواره الحكيم المقنع والممتع لم ينهزم في أي معركة بل كتب له النصر في جميع معاركه الفكرية التي خاضها سواء فيما يخص قضيتي التوحيد والبعث، وما أكثر ما خاض القرآن من قضايا فكرية مثل

---

[1] سورة الحجرات الآية 13.

[2] سورة النحل الآية 125.

قضية التحدي للقرآن وقضية التحريم والتحليل وقضية خلق السماوات والأرض وقضية صحة الرسالة وغيرها من القضايا التي حاور فيها فانهزم الخصم وانتصر هو.

أما تمسك الخصم بما يرى فليس لقصور في الدليل ولغموض في الفكرة بل كان ذلك سببا عن عنادهم وتماديهم في الباطل وصدق الله إذ يقول﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم**﴾.

وفي الآخر فإن هذا البحث تناول بالدرس أسلوب الحوار في القرآن الكريم، فأمكن من خلال هذا الدرس التوصل إلى نتائج فيما يخص خصائص الحوار القرآني حسب ما يصل إليه الباحث .

ومن أهم هذه النتائج:

أولا: إعجاز أسلوبه المبهر وروعة نظمه وخصائصه البلاغية الفريدة.

ثانيا: سار الحوار القرآني في جميع مراحله على مهل وعمق وتثبت وأناة وصبر .

ثالثا: وتم بشفافية وشموخ معا في جو من صدر رحب ،و عقل موضوعي صاف

رابعا: انتزاعه الأدلة من الأحوال المحسوسة دونما إلغاز أو غموض.

خامسا : سهولة تصور تلك الأدلة من حيث لا يمكن إنكارها بوضوحها وسرعة فهمها.

سادسا : أن القرآن لا يقف أمام العقل وحده يخاطبه، بل يوجه إرشاده إلى كل القوى المدركة في الإنسان، عقل ونفس، عواطف ووجدان.

سابعا : أن الأسلوب الحواري في القرآن الكريم يميل دائما إلى جانب الإنصاف ويستدرج الفكر بكل روافده إلى الحق مطوقا الخصم من جميع ثغوره مفندا كل شبهة لديه فلا يدعه حتى يستلب منه كل ما يمكن أن يستمسك به في أسلوب حكيم مقنع وتصوير سهل ممتع.

لقد لمس الحوار في القرآن الوجدان واتبع طريقة التصوير فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أرفع طريق وأقرب طريق [1].

وكنتيجة لذلك كله فإننا نقول: إننا نتشوق إلى الحوار من أجل اللقاء على مفاهيم واحدة ومن أجل إيجاد حل لهذا الإنسان ولهذا الواقع البائس، المشحون بالصراع.

ما أرجوه هو أن يتقبل الله هذا العمل تقبلا حسنا وأن ينفعني به يـــوم لا ينفـــع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ولله الحمد في الأولى والآخرة.

[1] سيد قطب التصوير الفني للقرآن ص32.

فهرس المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم رواية حفص

2- ابن الأثير: المثل السائر، لبنان، دار بيروت للطباعة والنشر، دط.

3- ابن العربي: أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط2، عيسى البالي الحلبي وشركاه، 1388 هـ- 1978م

4- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1952.

5- ابن خلدون: المقدمة ، طبعة 1 ، لبنان ، دار الكتاب، 1993م.

6- ابن ذريل، عدنان: اللغة والأسلوب دمشق ، دار الأنوار للطباعة، 1980م.

7- ابن سينا، أبو علي: الإشارات و التنبيهات، دار المعارف، القاهرة - مصر .

8- ابن طباطبا: عيار الشعر، القاهرة: شركة فن الطباعة 1956م.

9- ابن عبد البر: جامع بيان العلم و فضله، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1398هـ-1978م.

10- ابن مسلم، أبو محمد عبد الله ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، القاهرة، دار التراث، 1973 م.

11- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الإفريقي: لسان العرب القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط.

12- ابن هشام، عبد الله أبو محمد ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق محمد محي الدين، لبنان، المكتبة المصرية.1996م

13- أحمد، الشايب: الأسلوب:دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، طبعة6، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،1966م.

14- أحمد، محمد جمال : القصص الرمزي في القرآن، طبعة 1، لبنان دار الكتاب، 1991م.

15- أحمد، مطلوب: معجم النقد العربي القديم، العراق: دار الشؤون 1989م.

16- إدريس، حماد: المنهج الأصولي في فقه الحطاب، طبعة1، المغرب:المركز الثقافي العربي 1998م.

17- إكرام، لمعي: الاختراق الصهيوني للمسيحية، بيروت- لبنان، دار الشروق، ط2، 1991م.

18- الألوسي، شهاب الدين أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لبنان، ادارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي .

19-الأنباري، كمال الدين أبو البركات: أسرار العربية، تحقيق محمد بهجة، البيطار، دمشق، مطبوعات الترقي، 1975م.

20- إنعام نوال، عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة، طبعة2 ، لبنان، دار الكتب العلمية، 1996م .

21- الباقلاني، أبو بكر محمد ابن الطيب: إعجاز القرآن الكريم، تحقيق السيد أحمد صقر طبعة3، القاهرة، دارالمعارف.

22-البخاري، ابن إسماعيل عبد الله محمد البخاري: صحيح البخاري، ضبط وشرح الدكتور مصطفي ديب ، القاهرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ط.

23- البغدادي، عبد القادر ابن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968 م.

24- البوطى، محمد سعيد رمضان البوطي: تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز و جل، لبنان، مؤسسة الرسالة،1996 م.

25- الجاحظ، أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، طبعة 3، القاهرة، لبنان، دار التأليف بالمالية، مكتبة الخانجي، مكتبة الهلال: المكتب العربي، 1968م .

26- الجاحظ: الحيوان، تحقيق فوزي عطوي، لبنان: الشركة اللبنانية ، 1968م.

27- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر ابن عبد الرحمان: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح الإمام محمد عبده، محمد محمود التركيزي والشنقيقي، لبنان، دار المعرفة، 1978م، أسرار البلاغة تصحيحي محمد عبده، محمد ر شيد رضا، لبنان، دار المعرفة 1978م .

28- الجوهري، اسماعيل بن حماد: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت لبنان: دار العلم للملايين، ط4، 1990م.

29- الخطيب، عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، طبعة 1، القاهرة، السنة المحمدية 1384 هـ- 1964 م .

30- خلف الله، محمد أحمد: الفن القصصي في القرآن الكريم، طبعة 2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1958م.

31- دراز، محمد عبد الله: النبأ، ط4، الكويت، دار القلم، 1976م .

32- الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، ضبط وتخريج د. مصطفى ديب البغا، ط4، الجزائر، دار الهدى 1980م.

33- الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط8، لبنان، دار الكتاب العربي .

34- الرومي، فهد بن عبد الرحمان بن سليمان: خصائص القرآن الكريم، طبعة 9، السعودية، مكتبة العبيكان، 1997م.

35- الرويلي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، سعد البازجي، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2000م .

36- الزجاج: إعراب القرآن، تحقيق ودراسة ابراهيم الأبياري الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1964م.

37- الزركشي، أبو الفيض محب الدين السيد محمد مرتضى الزبيدي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، طبعة 1، دمشق، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، دار إحياء الكتب العربية، 1907م.

38- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود ابن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل و علوم الأقاويل في وجوه التأويل لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر .

39- الزيات، الزيات أحمد حسن: الدفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة، 1945م.

40- السلامي عمر: الإعجاز الفني في القرآن الكريم، تونس، نشر المؤسسات عبد الكريم، 1980م.

41- سنبل، حمد: الحوار القرآني بين التبصير والتفسير، ط8، دمشق سوريا، دار ابن هانئ، 1998م.

42- السهيلي، أبو القاسم: الروض الآنف.

43- السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، صححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى علي محمد البجاوي، أبو الفضل ابراهيم، مطبعة دار الكتاب.

44- السيوطي: همع الهوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، 1998م .

45- شريب، سيبريد فيتش: حكومة العالم الخفية، بيروت - لبنان، دار النفائس، ط3، 1400هـ-1980م.

46- الشعراوي، محمد متولي: معجزة القرآن، ج1، الجزائر، مكتبة رحاب، دط.

47- شمس الدين، أبو عبد الله ابن القيم الجوزية: الفوائد المشوق إلى علم القرآن و علوم البيان، لبنان، دار الكتب العلمية.

48- شوقي، ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط7، القاهرة، دار المعارف، 1979م.

49- الصابوني، محمد علي: صفوة التفسير، ط4، لبنان، دار القرآن الكريم، 1981م.
50- الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، ط8، لبنان، دار العلم للملايين، 1974م.
51- الصويان، عبد الرحمان: الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ط1، السعودية، دار الوطن للنشر، 1413هـ.
52- عائشة، عبد الرحمان بنت شاطئ: التفسير البياني للقرآن الكريم، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1974م-1394هـ.
53- عامر، فتحي: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي، 1359هـ.
54- العايد، صالح بن حسن: نظرات لغوية في القرآن الكريم، ط1، السعودية، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيلية، 1997م.
55- عبد البديع، لطفي: فلسفة المجاز بين البلاغة العربية و الفكر الحديث (الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان، مصر، الطبعة الأولى).
56- العثماني، سعد الدين: في فقه الحوار، ط2، المغرب، منشورات الفرقان، 1996م.
57- عصفور، أحمد جابر: الصور الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة، دار الطباعة والنشر، 1969م.
58- عكاوي، إنعام نوال: المعجم المفصل في علوم البلاغة، مراجعة أحمد شمس الدين، ط2، لبنان، دار الكتب العلمية، 1996م.
59- علي، جريشة: أدب الحوار والمناظرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط4، السعودية، وحدة الدراسات والبحوث في أصول الحوار، 1995م.
60- فضل الله، محمد فضل الله: الحوار في القرآن الكريم، الجزائر، دار الصورى للنشر.
61- القرضاوي، محمد يوسف: الثقافة العربية لإسلامية، ط1، بين الأصالة والمعاصرة.
62- القرطاجني، حازم: منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد، ط2، 1981م.
63- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط2، لبنان: دار الكتاب، 1952م.

64- القزويني، أبو عبد الله جلال الدين: الإيضاح في علوم البلاغـــة، شـــرح وتعليـــق وتنقيح د.محمد عبد المنعم الخفاجي، ط4، لبنان، منشورات دار الكتاب اللبناني.

65- قطب، سيد: في ظلال القرآن، لبنان، دار العلم للملايين، ط4، 1990م، التصويـــر الفني في القرآن، لبنان، دار الشروق.

66- قطب، محمد قطب: دراسات قرآنية، لبنان، دار الشروق، دط.

67- مالك، بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصابور شاهين، ط4، سوريا - الجزائر، دار الفكر، دار الفكر الجزائرية، 1987م.

68- المبرد، أبو العباس محمد بن زيد: الكامل في اللغة والأدب، مراجعة و قابلة لجنة من العلماء، القاهرة، مطبعة الاستقامة.

69- محمد، عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ط1، سوريا، لبنان، دار الفكر المعاصر، 1420هـ- 1999م.

70- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب، ط2، الدار العربية للكتاب، 1982م.

71- المطعني عبد العظيم: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط1، القاهرة، مكتبـــة وهبة ، 1992م.

72- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري، ط1، المركز الثقافي العربي.

73- منى، بنت عبد الله: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، طبعـــة 1، لبنان، دار ابن حزم.

74- منير، وليد: النص القرآني من الجملة إلى العالم، ط1، القاهرة، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، 1997م.

75- الهاشمي، أحمد جواهر الأدب: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعـــة الأولى، 1419هـ - 1999م.

76- هلال، غنيمي: النقد الأدب الحديث، ط1، القاهرة: دار النهضة للطبـــع والنشـــر، 1973م.

77- هلال، ماهر مهدي: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغـــي، العـــراق، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1980م.

78- وحيد الدين، خان: الإسلام يتحدى، مراجعة وتحقيق د. عبـــد الصبـــور شـــهين، طبعة 22، مؤسسة الرسالة، 2001 م.

79- وهبة، مراد: المعجم الفلسفي، دار المأمون للطباعة، القـــاهرة - مصـــر، الطبعـــة الثالثة، 1979.

الدوريات :

1- تراث الإنسانية: دار الكاتب العربي للطباعة و النشر، القاهرة- مصر، المجلد الخامس.

فهرس الموضوعات

المقدمة	أ
التمهيد	01
الفصل الأول : الحوار ومقوماته	05
1- مفهوم الحوار	06
التعريف اللغوي	06
التعريف الاصطلاحي	09
الحوار والجدل	11
تعريف قدامة بن جعفر للجدل	11
المناظرة	14
المناظرة وعلم الكلام	15
المحاجاة	20
الحوار في السيرة النبوية	23
الحوار في عهد الصحابة	27
الحوار في عصر التابعين	30
الحوار والاختلاف	37
الحوار ومنتهج الوسط	41
شرعية الحوار	43
2- عناصر الحوار	46
شخصية المحاور والطرف الآخر للحوار	47
الجو الهادئ والمستقل	48

موضوع وفكرة الحوار 49
3- قواعد الحوار 54
حسن التخطيط 54
الانطلاق من مواطن الاتفاق 55
الـــفصل الثاني :خصائص الأسلوب الحوارى 56
الأسلوب اللغوي، معناه، أنواعه، وظيفته 57
النظم والأسلوب 60
جودة السبك وإحكام السرد 62
حسن التخلص 64
التصوير والتشخيص 68
خصائص الأسلوب 71
الباقلاني و أسلوب القرآن 74
خصائص أسلوب القرآن عند الزرقاني 78
خصائص أسلوب القرآن عند محمد دراز 82
أساليب حوارية قرآنية 90
الـــفصل الثالث: الأسلوب الحواري دراسة تحليلية
لنصوص من سورتي البقرة والمائدة. 99
- حوار مع المنافقين 100
- حوار الله مع آدم والملائكة 117
- حوار الله مع إبليس. 129
- حوار هابيل مع أخيه قابيل. 133
- حوارات الله مع الأنبياء عليهم السلام. 137
* حوار الله مع إبراهيم 137

* حوار الله مع عيسى عليه السلام 143
* حوار الله مع موسى عليه السلام 148
- حوارات الأنبياء مع أقوامهم. 153
* إبراهيم عليه السلام يحاور أحد الملوك 153
* حوار إبراهيم مع قومه 156
* حوار إبراهيم و ضيفه 160
* حوار هود مع قومه 164
* حوار نوح مع قومه 170
* حوار موسى مع بني إسرائيل 175
الخاتمة 192
فهرس المصادر و المراجع 193
فهرس الموضوعات 202